دراسات تأصيلية
في
اللغة والتاريخ والأدب

الأستاذ الدكتور
عبد المجيد عابدين

Bibliotheca Alexandrina
01735532

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

طلب الي عدد من تلامذتي وأصدقائي أن أجمع لهم بعض ما خطر لي من محاولات تأصيلية عالجت فيها جوانب من اللغة والأدب والتاريخ ، وقمت باعدادها في كتيب .

ويسعدني أن أهدي هذا الكتيب المتواضع الى كل أبنائي وأصدقائي المتخصصين في هذه العلوم .

لقد تنوعت معارفها ، وان اشتركت معا في الجانب التأصيلي الذي آثرت أن اركز عليه في كل موضوع منها .

ولقد بدا لي بعد جمع هذه المحاولات ، أن المنهج المقارن ، يمثل دورا كبيراً في دراسة التأصيليات التي ركّزت عليها .

ولقد قسمت تلك المحاولات الى خمسة أجزاء ، وفصّلتُ هذه الأجزاء في فهرس المحتويات الذي أدرجته في آخر هذا الكتيب

والله الموفق ،،

الاسكندرية في يوم الجمعة ١٧ اكتوبر ١٩٨٦

عبد المجيد عابدين

الجزء الأول

تأصيل بعض فنون الشعر العربي

نشأة الوزن المقفى عند العرب الاوائل

A - تأصيل بعض فنون الشعر العربي

نشأة الوزن المقفى عند العرب الأوائل*

(أ)

عندما نقول : نشأة الوزن المقفى فانما نعني أولى المراحل التي أدت الى قيام الوزن العروضي ـ أي التفعيلي ـ واقترانه بالسجع ـ أي القافية . وفي ظني أن الوزن المقفى مر في نشأته وتطوره بمراحل بعيدة حتى بلغ ما بلغه في الشعر الجاهلي .

وفي تصوري ان هذه المرحلة ـ اعتمادا على بعض القرائن ـ تنقسم الى ثلاث :

الأولى : مرحلة النشأة التي نفترض انها قطعت نهاية شوطها في منتصف القرن الثالث الميلادي ، وفيها قامت التجارب الأولية التي أدت الى ظهور الرجز ، وهو فيما نرجّح أقدم الأوزان التي عرفها العرب الأوائل ، وقد حمل في تكوينه الأقدم بزور أوزان أخرى ، أخذت ـ بعد هذه المرحلة ـ تتمايز شيئا فشيئا .

والثانية : مرحلة النمو والانتشار وربما استغرقت قرنا من الزمان (أي الى حوالي ٣٥٠م) ، تجاوز الرجز في خلاله حدود موطنه الأول ، الجانب الشمالي الغربي من الجزيرة العربية ، بفضل حداة الابل ومهاجري القبائل ، الى نجد وشرقي الجزيرة العربية ، وفي هذه المرحلة ظهر " الشاعر " في

* نشرت في مجلة جامعة أم درمان الاسلامية ـ العدد الأول ـ ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨م .

قبائل ربيعة ، فى شرقى الجزيرة العربية ، مرتبطا بعباداتهم القديمة ، وأخذت أوزان العروض فى بيئات مختلفة ، وتحت تأثير الغناء والحركة الموقعة ، فى التمايز والتنوع .

والثالثة : مرحلة النضج (من حوالى ٣٥٠م الى ٤٧٠م) وفيها تستكمل " القصيدة " بناءها فى شرقى الجزيرة ، ويطلق الشعر على فنون النظم العربى وتظهر محاولات لابعاد الرجز عن نطاق الشعر ، وفى نهاية هذه المرحلة تجلت ثمرة التجارب السابقة فى الأوزان التى نظم فيها شعراء الجاهلية .

وفى هذا المقال نود أن نقصر كلامنا على مرحلة النشأة وحدها ، وعندما نقول : العرب الأوائل فانما نقصد " عرب الفصحى " الذين ظهرت بينهم اللغة العربية " الفصحى " والذين تطورت معهم . ونستطيع الآن — بعد دراسات قام بها بعض الباحثين — أن نصل الى نتائج اقرب احتمالا فى القضية التى ناقشها عدد من العلماء المعاصرين وهى : أين ومتى نشأت العربية الفصحى (١) فمن المحتمل أن بواكيرها الأولى كانت آخذة فى التكوين فى خلال القرون الأخيرة قبل الميلاد فى بيئة بدوية تقع فى الشمال الغربى من الجزيرة العربية ، فى المنطقة التى تمتد من خليج العقبة شمالا الى حدود الحجاز الشمالية . وكانت هذه المنطقة تسمى قديما " أرض معد " وهو فى نسب القبائل : معد بن عدنان (٢) وهى بيئة فنانة سكنها أجداد قبائل مضر وربيعة ، ونشأت بينهم العربية " الفصحى " طفلا وليدا يحبو على نغمات الحداء ، ويربو فى مواكب الغناء ويستمد من الحركة الموقعة عناصر القوة والنماء . ومن ثم امتزج الفن بكيانها ، وجرى لسانها

تكوينها ، تأسرها النغمة الموسيقية ويملكها الصوت الرخيم ، وتتغلغل السليقة الفنية فى أصواتها وأبنيتها وتراكيبها(٣) .

على ان العربية كان أخوات تقدمنها فى الزمن ، أو سبقتهن على مسرح التاريخ أخوات تنتمى معهن الى أصل واحد ، فهى فرع من شجرة اللغات السامية ، او فرد من اسرتها . وهى بالقياس الى أخواتها تعدّ من أكثر اللغات السامية احتفاظا بميزاتها السامية وتوسعا فى كثير من خصائصها . وكان لهؤلاء الأخوات فنون من النظم والغناء والموسيقى والحركة الموقعة . ومن الطبيعى ان ترث العربية من السامية الأم هذه الفنون أو بعضها ولكنها استطاعت بموهبتها الخاصة أن تضيف الى ماورثته وأن تعدل من شكله ومضمونه . فاذا أردنا أن نتبين موقف العرب الفصحاء أو العرب الأوائل مما ورثوه من فنون ، فلا بد أن نعرف أولا أحوال هذه الفنون عند الشعوب السامية التى سبقتهم .

(ب)

واذا نحن ألقينا نظرة على الأطوار المختلفة التى مرت بها الفنون الصوتية — أعنى الأدب والغناء والموسيقى — حتى وصلت الى عرب الفصحى فى الجاهلية ، وجدنا مايؤكد أنهم استطاعوا أن ينقلوا الأغنية السامية القديمة نقلة بعيدة رائعة ، وان يضيفوا اليها من الثروة الموسيقية ماعجز عن مثله الساميون الأوائل ، وان يبلغوا بها حد الاكتفاء الذاتى اذا صح التعبير .

ولكى نوضح المقصود من الاكتفاء الذاتى فى الأغنية العربية أو النظم العربى ، يجب أن نقف قليلا عند الأغنية السامية القديمة التى

عرفهـا الساميـون قبل ظهور الفصحى . ولقد يدهشنـا حقا ونحن نستمـع الـى هذه الأغانـى فى لغاتها الأصليـة فى لغة بابـل وآشـور ، وفـى لغة الآراميـين وفى لغة العبرانيين ، الا نجـد فيها وزنـا عروضيا ولا قافيــة ، اللهـم الا مجموعـة من التركيبـات ، كل تركيـب منها يتكون غالبا من جملتـين متقابلتين فـى المعنى ويعد كل تركيب منها بيتـا من الشعر ، وليس فيـه مـن الشعـر الا انقسامـه الى شطرين . فاذا قال سفر الأمثال (٣ : ١٣) :

طوبـى للانسان الذى يجـد الحكمـة אשרי אדם מצא חכמה
وللرجل الذى ينـال الفهـم ואדם יפיק תבונה

فهـذا فى نظرهـم بيت من الشعر لالشـىء الا لأنـه يقابل أو يـوازن بـين عبارتـين من حيـث المعنى ، فقولـه (للانسـان الذى يجـد الحكمـه) يقابـل فى المعـنى قولـه فى الشطـر الثانى : (وللرجـل الذى ينال الفهم) ، ولكـن هل لهـذا البيت وزن عروضـى أو قافيه ؟ لاشـىء على الاطـلاق . وكذلك اذا قال السامى القديم (الأمثـال ١٠ : ١١) :

فم الصديق ينبـوع حيـاه מקור חיים פי צדיק
وفم الأشرار يغشاه ظلـم ופי רשעים יכסה חמס

فها هنا تقابـل بين عبارتـين فى المعنى ، وليس يتخللهما شـىء مـن الوزن والقافيـة . ومع هذا كـان هذا هو النظـم عندهم ، وهو عندنا يدخـل فـى باب النثـر ، ويسمـى التـوازن أو الازدواج . ولقـد وقـع الباحثـون المحدثـون فى حـيرة عندما وجـدوا فى النقوش والكتابـات الساميـة القديمـة عشـرات من الأغانـى من هذا النوع . وتسـاءلـوا كيف يكون هذا شعرا ؟ وأين وزنـه وقافيته ؟ وكيـف كان ايقاعـه فى الغناء والانشـاد ؟ وقامت محـاولات

مضنية بحثا وراء العناصر الموسيقية في هذه التركيبات التي تسمى شعرا واختلفت الآراء (٤) . والرأى في هذا كله واضح لايحتاج الى جدال ، فالشعر القديم لم يكن من الناحية الموسيقية مكتفيا بذاته ، وانما كان يعتمد أساسا على الفنون الأخرى ، كان الشعر السامي القديم مفتقرا الى الغناء والموسيقى والحركة الموقعة ، فأستعان الساميون القدامى بالغناء والموسيقى والحركة الموقعة ، لسد جوانب النقص في نظمهم ، وبذلك جلبوا الى الكلام الذى أنشدوه وسائل اضافية خارجة عنه لامداده وتعزيزه بالقدر الموسيقى الملائم . فكان المغنى يعبث بمقاطع الكلام ، فيمططها حينا ويقصرها حينا حتى ينشيء لها شيئا من الايقاع . واستخدموا ـ الى جانب ذلك ـ الموسيقى الآلية والطبيعية وبالغوا في استخدامها . وترينا نقوشهم وكتاباتهم اسماء عديد من الالآت الموسيقية كانت تصاحب الغناء عندهم سواء في داخل المعابد او في المحافل العامة (٥) واستعانوا ـ أيضا ـ بالحركة الموقعة كحركة السير أو الرقص الى جانب الغناء والموسيقى . وفي رأيى أن هذا الاهتمام البالغ بالغناء والموسيقى والحركة الموقعة ـ قبل أن يكون مظهرا حضاريا ـ كان ضرورة لجأت اليها الشعوب السامية ، بدوا وحضرا ، لتعزيز أغانيهم القديمة . اذ لم يكن لديها حينئذ من الموسيقى الذاتية مايغنيها عن اللجوء الى الفنون الأخرى . وظل الأمر كذلك حتى تطورت الأغنية القديمة على أيدى العرب الفصحاء بحيث استوعبت في داخلها عناصر من الموسيقى ، وهى السجع والوزن ، وبذلك استكملت المنظومة السامية جوانب النقص على يد العرب الفصحاء ، فاستقلت حينئذ عن سائر الفنون .

على أن استقلال المنظومة العربية عن فنون الصوت والحركة بعد ظهور الوزن المقفى ، لا يعني بحال من الأحوال أن هذه الفنون لم تترك أثرا على نشأة النظم العربي . فلقد عاشت المنظومة السامية حقبا طوالا ملازمة لفنون الصوت والحركة ، وكان لذلك أثر عميق بالغ في توجيه العرب الأوائل الى الموسيقى الذاتية في النظم العربي . وهذا يعني أن التجارب الأولى التي أدت الى ظهور الوزن المقفى عند العرب قد خضعت لتأثير الغناء والحركة الموقعة . وربما لانذهب بعيدا اذا زعمنا أن الوزن المقفى كان في الواقع وليد هذه المؤثرات . فلما استوى النظم العربي على أوزان واضحة المقاييس والقسمات ، ونظام مقرر للقوافي ، استغنى عن الغناء والموسيقى ، فهبطت مكانتهما القديمة من الكلام المنظوم ، فأصبحا أدوات كمالية للزينة والتحلية ، بعد أن كانا في العهود السابقة وسائل لاغنى للكلام عنهما . وتلك مزية للنظم العربي قلما وجدناها في أشعار الأمم الشرقية والغربية " فان كثيرا من أشعار الأمم تكسب صفتها الفنية بمصاحبة فن آخر ، كالغناء أو الرقص أو الحركة على الايقاع . ولكن النظم العربي فن معروف المقاييس والأقسام بعد استقلاله عن الغناء والرقص والحركة الموقعة "(٦) .

(جـ)

والسجع كيف نشأ ؟ وما صلته بالوزن من ناحية وبالغناء والحركة من ناحية أخرى ؟

نلحظ — أولا — أن السجع أسبق ظهورا في الآداب السامية من الوزن العروضي ، وهذا هو الرأي السائد بين العلماء الباحثين اليوم (٧) .

والقرائن التاريخية تؤيده . ففي نقوش رأس الشمرة التي عثر عليها في أقصى الشمال الغربي من بلاد الشام ، في لغة سامية عريقة في القدم ترجع الى القرنيين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد ، ظهرت بعض عبارات قليلة تبدو كأنها مسجوعة . واذا انتقلنا الى أقصى الجنوب من الجانب الغربي من بلاد العرب ، وجدنا في النقوش اليمنية المكتوبة بلغة سامية عريقة أيضا ، بعض محاولات تدل على اتجاه الى استخدام السجع . ومن اليمن انتقل السجع غالبا الى الأدب الحبشي القديم . وليس لدى الأحباش من قوالب اللغة الفنية سوى التقفية ، أى السجع ولا يقتصر ذلك على الأغاني الكنسية بلغة السجعز ، بل هو الشأن أيضا في الأغاني الشعبية بالأمهرية القديمة وهي احدى اللغات السامية الاثيوبية(٨) . وهذا كله يدل على أن الأسجاع السامية التي عثر عليها في النقوش المشار اليها ظهرت في طرفين واقعين على جانب جغرافي واحد ، هما طرفا هذا الشريط الغربي من بلاد العرب الذي يوازي سواحل البحر الأحمر والمتوسط ، أحدهما يقع في أقصى الشمال الغربي حيث بلاد الشام ، والثاني يقع في أقصى الجنوب الغربي حيث بلاد اليمن وامتدادها عبر البحر الأحمر في اثيوبيا . واذا عرفنا أن أرض معد بن عدنان كانت — على الراجح لدينا — منبت الفصحى . وهي واقعة في ملتقى الطرق بين هذين الطرفين البعيدين ، كان من الطبيعي أن يتلقى عرب الفصحى ، في مهدهم الأول ، طريقة السجع من جيرانهم في الشمال والجنوب ، وقد استطاع هذا الفن أن يزدهر في اللغة العربية على نحو لانكاد نجد له نظيرا في أخواتها المجاورة ، وما لبث هذا الفن أن خرج من أرض معد ، مع سكانها المهاجرين من مضر وربيعة ، الذين انتشروا مع انتشار الفصحى في خلال القرون الأولى

للميلاد في مناطق الحجاز وشمالي اليمن ونجد وشرقي الجزيرة العربية .

واذا كان السجع قد عرفته الآداب السامية قبل ظهور الفصحى بحقب طوال ، فان الوزن العروضي ، على العكس من ذلك ، لم يكن له أي أثر في النقوش والكتابات السامية التي ظهرت قبل الفصحى . فالوزن العروضي فن عربي خالص ظهرت آثاره الأولى باللغة الفصحى وفي الأدب الجاهلي الذي يرجع الى فترة لا تتجاوز قرنين من الزمان قبل ظهور الاسلام . ويعني هذا أن النثر المسجوع كان سابقا على التوزين العروضي ، وأن عرب الفصحى ورثوا ـ فيما ورثوا ـ طريقة السجع من شعوب سامية أقدم منهم ، ثم أتيحت لهم ـ على مر الزمن ـ تجارب خاصة اقترنت بهذه الأسجاع ، أو ببعضها ، فنتج عنها الوزن المقفى ، فكانوا بذلك أول من ابتدعوا طريقة في النظم ... لم تكن مألوفة لدى سائر الشعوب السامية .

واذا كان التطور التاريخي قد جمع بين السجع والوزن لأول مرة في الأغنية العربية ، وفي ظل اللغة العربية ، وفي ظل اللغة العربية ، فان هذا اللقاء لا يعني من الناحية الفنية أن السجع مرتبط ارتباطا جوهريا وضروريا بالوزن العروضي . فلا ارتباط بينهما من هذا النوع . وقد يكون الكلام مسجوعا بغير وزن ، كما يكون موزونا بغير سجع أي قافية . ونوع الايقاع يختلف فيهما . فالسجع أصوات من الكلام متوافقة تقع على فواصله ، لكل فاصلة منها رنين آني لا امتداد له ولا استطالة في زمانه . أما الوزن فهو أبعاد زمنية ممتدة ذات نسب متساوية أو متجاوبة ، وليس هو بمقاطع من الكلام . واذا كان الخليل بن أحمد ، واضع علم العروض ، قد عبر عن هذه النسب بوحدات من الكلام ، والتي لبستها

اصطلاحا مشتقا من مادة (ف ع ل) مثل : ها مستفعلن أو فعولن أو فاعلاتن ... فهذا فى الحقيقة اجتهاد من الخليل حاول فيه أن يترجم للسامع هذه النسب الزمانية المحضة الى صور من مقاطع الكلام أسماها " تفعيلات " ومع هذا فمن اليسير أن نعبر عنها بالصوت الموسيقى المحض كنقرات الأصابع ، أو ضربات الأقدام أو دقات الطبول أو نفخات المزمار . بل من اليسير ان نعبر عنها بحركات ذوات أبعاد متناسبة نرسمها فى الهواء ولا نسمع لها صوتا . فالوزن فى حقيقته ليس مجرد كم من المقاطع الموسيقية أو اللغوية ، وانما هو - أولا وقبل كل شىء - أبعاد زمانية خالصة ، تختلف فى نوع ايقاعها عن ايقاع السجع الذى يدور على توافق الجرس اللفظى ، أو ايقاع التوازن المعنوى بين العبارات(٩) .

ومع هذا فان تعزيز الوزن بالسجع فى النظم العربى فيه تلوين ايقاعى يزيد من الطاقة الموسيقية فى الكلام المنظوم ، كما أن السجع ، فى مختلف مراحل تطوره ، قبل أن يقترن بالوزن ويمهد ، كان يؤدى فى مجال الغناء وظيفة لها أهميتها : هى التنبيه على النهايات بين أجزاء الكلام المنثور أو أشطار الكلام المنظوم . ومن الممكن أن نتصور أن الساميين الاوائل كانوا يؤدون مثل هذه الوظيفة فى أغانيهم بطريقة ماقبل أن يهتدوا الى السجع . فلعلهم استعانوا بنقرات الدف ونفخات المزمار وما إليها لاحداث رنات متماثلة عند كل وقفة أو فاصلة للتنبيه عليها . فلما أهتدوا الى السجع قام بدوره مقام نقرات الدف ونفخات المزمار ، وورث بذلك هذه الوظيفة . وانما تشتد الحاجة الى هذا التنبيه فى حالات الانشاد أو الغناء الذى يحتاج

السامعون فيه الى الاحساس بمواضع الوقوف والاتصال كأن يكون الكلام مضطرب الأبعاد مختلف المقاطع لا يتحرى شيئا من الوزن ، فحينئذ يحتاج المغنى الى شيء ينبه السامع الى نهاية كل جزء منه ويزود الأسماع بعلامة ثابتة للوقوف. وبغير هذه العلامة تتداخل أجزاء الأغنية ، وتتميع مواضع الانتقال والانقطاع. بل يحتاج المغنى الى تنبيه السامع كذلك عندما يكون الكلام موزونا لتبين حدود الأشطار والأبيات. وهذا يعنى أن السجع لم يفقد أهميته حتى بعد أن اقترن بالوزن وتساوت أبعاد الكلام وتناسقت مقاطعه ، فاستمر يؤدى وظيفته ، واحتفظ بمكانته بعد مرحلة الوزن كما كان قبلها . ففى كلتا الحالتين كان لابد للمغنى أو المنشد أن ينبه السامع الى المقاطع والنهايات ليعرف أين يكون الوقوف وأين يكون الاسترسال (١٠) .

ومن الواضح أن التنبيه بالسجع أشد فى الرجز منه فى القصيد . فالرجز فى أقدم صوره كان يتحرى السجع فى كل أشطاره ، وهو أنصاف أبيات وأثلاث كلها على هيئة السجع غير أنها تجرى على الوزن العروضى . وفى هذا ما يؤيد أن الرجز نشأ مباشرة من النثر المسجوع. أما القصيدة فقد عرفها العرب فى مرحلة أحدث بعد ظهور الرجز بزمان غير قصير . وفى القصيدة لا يلتزم الشاعر السجع — أى القافية — فى نهاية كل شطر من أشطارها ، وانما يكتفى بالسجع فى نهاية البيت بعد تمامه. وهذا يدعونا الى التساؤل : لماذا تخففت القصيدة من السجع فى أشطارها الأولى ؟ ألأنها ظهرت بعد أن استقل النظم عن الغناء. ؟ أم لأن الغناء ذاته قد تطور بحيث لم يعد بحاجة الى التزام التنبيه فى نهاية كل شطر من أشطار المنظومة ؟

يرى الأستاذ العقاد أن الحاجة الى التنبيه بالسجع أو القافية انما تكون عادة فى الغناء المنفرد . ويرى أن العرب لم يعرفوا فى بيئتهم القديمة إلا هذا النوع من الغناء ، وهو الحداء (ينشده الحادى على انفراد وتصغى اليه القافلة أحيانا فى هدأة الليل ، اذ يعتمد الحس كله على السمع فى متابعة النغم الى مواضع الوقوف والترديد ، فتقفو النغمة على وتيرتها ، ويصدق عليها اسم القافية بجملة معانيه) . أما الجماعة ـ فى رأيه ـ فانها " اذا اشتركت فى الغناء لم تكن بها حاجة الى هذا التنبيه ، لأن المغنيين جميعا يحفظون الغناء بفواصله ولوازمه ومواضع النبر والترديد فى كلماته وفقراته فينساقون مع الايقاع بغير حاجة الى القوافى عند نهاية السطور " (١١) .

وقد يؤيد هذا الرأى أن ترنيمة الحداء التى نشأ منها الرجز قد ارتبطت بالسجع الذى يكون عند كل فاصلة . ولكن هناك ضروب أخرى من الانشاد شاعت بين العرب الأوائل ، ووصفت بما يدل على أنها من الانشاد الجمعى أو الدورى Antiphon وترنموا فيها بالرجز ، ومن ذلك ما روته السيرة النبوية فى خبر غزوة الخندق ، من أن المسلمين فى حفر الخندق ارتجزوا برجل منهم يقال له " جعيل " سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عمرا " فقالوا :

سماه من بعد جعيل عمرا ... وكان للبائس يوما ظهرا

فاذا مروا " بعمرو " قال رسول الله (ص) : عمرا ، واذا مروا " بظهر " قال رسول الله (ص) : ظهرا (١٢) ففى هذا النص ما يدل على أن انشاد الجماعة كان معروفا لدى العرب ، وأنه ـ مع ذلك ـ اقترن بترديد القافية والتنبيه عليها .

ثم الوزن العروضي كيف نشأ ؟ وما الصلة بينه وبين الغناء والحركة الموقعة ؟ قلنا ان الوزن في حقيقته أبعاد زمانية متناسبة ، وهو من غير شك ثمرة تجارب استوحاها العرب الأوائل من الغناء والحركة الموقعة . تجارب كانت وليدة عمل مركب تضافرت فيه فنون من الصوت والحركة ، وقامت فيه " الحركة الموقعة " بدور رئيسي الى جانب الصوت . ولسنا بحاجة الى اثبات ما بين الصوت والحركة من تجانس وتكامل في العمل الفني . فاقترانهما أمر تؤيده طبائع الأشياء ، كما تؤيده نشأة الفنون الصوتية والحركية ذاتها . ولقد أشرنا من قبل الى أن الحركات المنتظمة مثل نغمات القطعة الموسيقية ومقاطع الكلام الموزون ، تنقسم كلها الى أبعاد زمانية تتساوى أو تتجاوب [١٣] وهذه الأشكال ، وان تعددت ، تلتقي كلها من حيث انها وسائل للتعبير عن هذه الأبعاد . وكثيرا ما تلتقي من الناحية العملية . فقد نسمع الصوت على نهاية الحركة الموقعة ، أو على بدايتها ، أو في خلالها . وقد تصاحب أنغام الموسيقى أو كلمات النشيد الحركات الموقعة من أولها الى آخرها . بل أن بداية الحركة أو نهايتها تقوم مقام الصوت ، فاذا تناهت حركة السير أو الرقص ولم تصادف في نهايتها صوتا . فان هذا التناهي يقوم مقام الصوت . كما أن الزمان الذي يكون بين نهاية حركة سابقة وبداية حركة تالية هو نفسه الزمان الذي يكون بين نقرتين [١٤] . ومن أجل هذا كان اقتران الحركة بالصوت في العمل الفني أمرا طبيعيا .

ولقد استغل العرب الأوائل هذه الظاهرة الى أبعد حد ، في اللغة والفن . وعنوا عناية خاصة بالحركة الصامتة ، أو الصوت الذي

يواكب الحركة . وأبدعوا في الفنون التي اقترنت ـ أو امتزجت ـ فيها الحركة بالصوت حتى بلغوا بها درجة عظيمة من الحيوية الموسيقية والتصويرية . وأغلب الظن أن الفنون التشكيلية ، كالنحت والرسم والزخرفة وما اليها ، لم تصادف منهم شيئا من العناية لضآلة عنصر الحركة ، الظاهرة والخفية ، في طبيعة تكوينها . فبينما نجد فنون الصوت والحركة تزدهر على أيديهم ، نجد الفنون التشكيلية ـ على العكس من ذلك ـ لم تنشط في التاريخ العربي القديم الا في عصور ماقبل الفصحى وفي بعض حواضر الساميين [١٥] ثم لم تلبث أن تضاءلت في عصور الميلاد حتى صارت لاتلقى منهم اهتماما ولا رعاية . ولم يكن ذلك عن نقص طبيعي في الحاسة الفنية عند العرب ، ولا عن ضعف في حاسة التمييز بين الألوان والأشكال والحجوم [١٦] وانما هو ـ في نظري ـ فرط التعلق بالحركة الموقعة التي سيطرت على نزعة العربي القديم ، ووجهت حياته ، وتحكمت في سلوكه ومزاجه حتى صار انتاجه الفني مرتبطا بمقدار ماتثيره الحركة في حسه ونفسه ، ومايحتويه العمل أو المشهد من حيوية ونشاط . ولاجدال في أن حياته في البادية كان لها الأثر البالغ في تنمية هذه النزعة وتقويتها . فالاستقرار عنده جمود ، والسكون عنده موت ، وهو دائب الحركة ، سريع التنقل من مكان الى مكان ، لايروقه من أعمال المعاش الا ما كان مصحوبا بالحركة ، حركة السير ، وحركة التنقل ، وحركة الأخذ والعطاء . ومن أجل هذا زهد العربي القديم في أنواع الممارسات التي تقيده بالمكان وقتا طويلا ، وتقيده بالأشكال الجامدة أو الساكنة التي لاتتيح لعنصر الحركة ـ ولو من طريق الخيال والتصور ـ أن يعمل عمله فيها .

وانعكس هذا على لغته . فكانت حصيلتها من التعبير عن الصوت والحركة أكثر وأغنى وأدق من حصيلتها المعبرة عن الألوان والأحجام. فقد تجلت فيها العناية الفائقة بالألفاظ الدالة على دقائق الأصوات في مختلف درجاتها وأنواعها . فهناك أسماء مختلفة لأصوات الانسان ، وأخرى لأصوات الحيوان ، وثالثة لأصوات النبات والجماد . وألفاظ دقيقة المدلول تفرق بين الأصوات الجهيرة والخافتة والحادة . وتجلت مثل هذه العناية في الألفاظ الدالة على الحركة . فهناك فيض من الأسماء التي تعبر عن الفوارق الدقيقة بين أنواع السير وطرقه على اختلافها ، وحركات الأجسام والاشارات ونحوها . وعلى العكس من ذلك الألفاظ الدالة على الأوزان والأحجام والأشكال الهندسية والزخرفية ، والفوارق بينها ، فهذه ليس لها من الوضوح والدقة والشمول ما للألفاظ الدالة على الصوت والحركة(١٧) .

بل انعكس هذا على غنائه وانشاده ، فاقترن بالحركة الموقعة ، ولاسيما حركة السير . ومن المعروف أن الغناء — عند كثير من الشعوب — سواء أكان غناء فرد أو جماعة — كان يمارس أحيانا في حالة السكون والاستقرار ، وأحيانا أخرى في أثناء حركة السير أو الرقص ، وقد عرفت الشعوب السامية الغابرة غناء الحركة كما عرفت الغناء الساكن (١٨) . وعرفهما العرب الأوائل ، غير أن هؤلاء كانوا — فيما يبدو — تحت تأثير ظروف حياتهم واستعدادهم — أشد تعلقا بغناء الحركة ولاسيما غناء المسيرة ودليل ذلك ما روته الأخبار عن غناء البادية كالحداء والنصب والركبانية ومن ضروب الغناء والانشاد التي كانوا يمارسونها في المحافل الدينية كالتلبية والتهيير والتقليس؟

فالحداء ، وهو أقدم أغاني البادية ، كان يغنيه الحادي وهو يسوق الابل . والنصب صورة متطورة غالبا من الحداء ، وهو شبيه بالحداء غير أنه أرق . وأصله — فيما نرجح — مشتق من بعض ضروب السير، وفي اللغة : الناصب : الجاد في السير . وليس يمتنع في كلام العرب أن تكون الصيغة جمعا للناصب ، كما قالوا في جمع الراكب : الركب ، والسافر (أي المسافر) : السفر ، والصاحب : الصحب ، والشارب : الشرب . وعلى هذا يكون معناه غناء الجادين في السير . ويقال في تعريفه : هو غناء الركبان والفتيان [19] . ويحتمل أنه كان من الغناء المنفرد أو الغناء الدوري [20] الذي يبدأه المغني أو جماعة المغنين ثم يرده آخرون أو يرددون جزءا منه في أثناء سيرهم أو عملهم ، أما الركبانية فهي فيما يظهر غناء تنشده جماعة الركبان كلها اذا ركبوا الابل ، وربما تطور من غناء النصب ، وتوسعوا فيه ، فصاروا ينشدونه اذا انبطحوا على الأرض ، واذا قعدوا في أفنيتهم وفي عامة أحوالهم [21] .

فاذا انتقلنا الى الغناء أو الأنشاد الديني عند العرب الأوائل ، وجدنا عنصر الحركة متماثلا فيه كله . فالتلبية كانت في الجاهلية ، وكانوا يلبون في أثناء طوافهم ، الا أن بعضهم كان يشرك في تلبيته [22] . وذكر ابن حبيب في " المحبر " احدى وعشرين تلبية كانت لمختلف القبائل . كما أوردت المصادر الأخرى عددا آخر منها [23] . والتغبير ، لون من الانشاد الديني ، اصطنعه أهل الكتاب في الجاهلية ، وهو بقية من المحافل المقدسة القديمة ، كانوا يصيحون بالدعاء والابتهال وطلب المغفرة ، ويطربون في صياحهم ويرقصون . قال ابن دريد : هو تهليل أو ترديد صوت بقراءة أو غيرها . وقد استمر التغبير الى مابعد الاسلام

وأنكره الفقهاء . وورد فى لسان العرب: (المغبرة قوم يغبرون بذكر الله تعالى بدعاء وتضرع ، كما قال :

عبادك المغبِّره ... رُشَّ علينا المغفره

(قال الأزهرى : وقد سموا مايغبرون فيه من الشعر فى ذكر الله تغبيرا كأنهم اذا تناشدوا بالألحان طربوا فرقصوا وأرهجوا ، فسموا مغبرة لهذا المعنى . قال: وروينا عن الشافعى (رض) أنه قال: أرى الزنادقة وضعوا هذا التغبير ليصدوا عن ذكر الله وقراءة القرآن[٢٤]) .

ومن الانشاد الدينى الذى عرفه عرب الجاهلية مايسمى بالقلس أو التقليس ، وهو أيضا من بقايا المحافل المقدسة القديمة ، اتخذه أهل الكتاب فى الجاهلية تحية لقدوم شخص له عندهم مكانة أو قداسة ، وفيه كانوا يرفعون أصواتهم بالدعاء والتهليل ، مصحوبة بضرب الدف ونفخ المزمار وحركات الرقص واللعب بالسيوف والريحان ، يصنعون ذلك بين يدى المحتفى به ، وفى خلال ذلك يضربون أيديهم على صدورهم وينحنون أمامه تقربا أو اظهارا للخضوع . وقد استمرت هذه العادة الى مابعد الاسلام . وفى حديث عمر (رض) " لما قدم الشام لقيه المقلسون بالسيوف والريحان " وفى الحديث: " لما رأوه قلسوا له " . وورد فى شعر الكميت " غنى المقلس بطريقاً بمزمار "[٢٥] .

فهذه الأنواع من الغناء والانشاد ، سواء ما اتخذه منها أهل الكتاب أو شاع فى البوادى العربية فى الجاهلية ، قد ارتبطت ـ الى حد بعيد ـ بالحركة الموقعة . وهذا ـ بصفة عامة ـ مظهر لهذا الميل الذى سيطر على نفس العربى القديم كما أشرنا من قبل . ومن الطبيعى أن يكون للشعر

ذلك حرص العرب على أن يوائم بين هذه الحركات الموقعة ، وبين مقاطع الكلام الذى ينشده ، والأنغام التى تصدر من موسيقاه . فكأن حركة السير ، سواء سير الانسان أو الحيوان ، كانت عنده بمثابة المرشد الموسيقى الذى يوجه المنشدين الى ضوابط الايقاع وحدود النغم ، أو قل بمثابة النسائم الرقاق التى تهب على صفحة الماء فتموجها تمويجا متدرجا منتظم القسمات متناسب الأبعاد . بل أن أثر هذا الميل لم يقف عند شكل الكلام أو النغم وحده ، وانما تغلغل فيما هو أعمق ، فتجلى الميل الى الحركة القوية فى مضمون الكلام ذاته ، وفى الوصف والتصوير بنوع خاص ، كما يظهر ذلك واضحا فى الشعر الجاهلى .(٢٦)

(هـ)

على أن أنواع الغناء والانشاد التى أشرنا اليها تستوقفنا من ناحية أخرى ، فقد رأينا منها صنفا كان بقية من المحافل المقدسة القديمة ، وموضوع الغناء فيهما متشابه ، وهو عبارة عن ترنيمات تتجه الى مقدس بالدعاء والتهليل . أما الصنف الآخر فقد شاع فى البادية ، وأقدمه الحداء ولم تحفظ الروايات لنا شيئا عن أقدم الموضوعات التى كان الحادى يتغنى بها . فهل نستطيع من طريق الدراسة المقارنة أن نهتدى الى أقدم مضمون للحداء ؟ .

هناك طائفة من الروايات تتفق على أن الحداء أول السماع والترجيع فى العرب ، وأنه نشأ فى قبائل مضر بن نزار بن معد ، وهم احدى مجموعتين كبيرتين سكنتا " أرض معد " فى الجاهلية البعيدة ، وتذكر

هذه الروايات أن مضر بن نزار كان فى بعض أسفاره قد سقط عن جمل فانكسرت يده ، فجعل يقول هايداه ، هايداه (وفى رواية : وايداه ، وايداه) ، وكان من أحسن الناس صوتا فأصغت اليه الابل وطاب لها السير ، فجعلت العرب مثالا لقوله : هايداه ، هايداه يفتتحون به الحداء (٢٧) .

ومن الواضح ان هذه الروايات تعبر عن تفسير متأخر شاع بين العرب لكلمة (هايداه) التى يستهل بها الحادى حداءه . ويبدو أنها كلمة عريقة استعملها بدو الساميين فى حداء ابلهم قبل ظهور الفصحى ، ثم ورثها العرب الفصحاء ، وغابت عنهم — على مر الزمن — أصول الكلمة ، ففسروها على هذا النحو . والكلمة معروفة فى اللغات السامية القديمة ، وردت فى عبرانية العهد القديم مرة واحدة فى صيغة الجمع : هو — يدوث הֻיְדוֹת ومفردها (هو — يداء) ومعناها ترنيمة التهليل أو التحميد (٢٨) . ومما يدل على عراقة هذه الكلمة وارتباطها بالحداء منذ البداية ، أنها دخلت فى أقدم مواد اللغة الفصحى ذاتها ، وتفرعت منها مشتقات كثيرة ، فأخذ العرب منها مايدل على زجر الابل وحدائها فقالوا : (هيد ، هاد) لزجر الابل واستحثاثها . وقالوا : الهيد هو الحداء . وقالوا : التهويد هو الترجيع بالصوت فى لين ، وهوَّد المغنى اذا غنى بصوت لين فيه ترجيع . بل تفرعت منها مشتقات فى مادة أخرى وهى (ود ه) فقالوا : أوده بالابل ايداها صاح بها ، واستودهت الابل اجتمعت وانساقت ، واستيده الرجل الابل استخفها .. وهكذا تغلغلت كلمة (هايداه) الى صميم حياة الأعراب ولغتهم . وكأن الحادى فى قديم الزمان كان يستهل حداءه

بترنيمة يدعو فيها ويبتهل ، وهو يشق طريقه في مفازات محفوفة بالمخاطر ، يستعطف فيها القوى الكامنة التي تسيطر ـ في زعمه ـ على الصحراء ، ويبتهل اليها لتحميه من مخاوف الطريق وأخطارها . ولهذه العادة بقية ظلت ماثلة في المصادر العربية القديمة . فقد روى أن العربي (كان اذا ركب مفازة وخاف على نفسه من طوارق الليل ، عمد الى وادى ذى شجر ، فأناخ راحلته في قرارته ـ وهى القاع المستديره ـ وعقلها ، وخط عليها خطا ، ثم قال : أعوذ بصاحب هذا الوادى ، وربما قال : بعظيم هذا الوادى . وعن هذا قال الله سبحانه في القرآن : (وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا)[٣٩] (سورة الجن ، آية ٦)

ولسنا ندرى أكانت ترنيمة الدعاء والتهليل ـ منذ البداية ـ مقدمة يستهل بها الحادى قبل أن يسترسل في الغناء ، أم كانت مضمون الحداء كله ، فمن الواضح أن هذه الترنيمة كانت تشبه في مضمونها ترنيمات التلبية والتكبير والتقليس . غير أن هذه عاشت واستمرت في رعاية الوسط الدينى وحمايته ، وتلك ذهبت آثارها في رمال الصحراء فلم يبق منها غير عنوانها " هايداه " ومشتقاته في اللغة .

على أنه من المحتمل أن الحادى قد سمح لنفسه ـ على مر الزمن ـ أن ينطلق على سجيته ، وأن يترنم ـ الى جانب الدعاء والتهليل ـ بما يعن له من مشاهد وخواطر في خلال سفره البعيد ، وما يعترض سبيله من غوائل الطبيعة والكائن الحى ، ومخاطر الغزو والاغارة . فكان هذا كله موضوع حدائه يقطع به المسافات الطوال ترويحا عن نفسه ، وتنشيطا لقافلته أو راحلته ، فيه من معانى الحمد والثناء والتضرع

والدعاء لهذه القوى التى اعتقد أنها تسيطر على القفار والأودية ، وفيه وصف لمشاهد الرحلة ، وفيه تعبير عن الصراع بين الموت والحياة ، وفيه ما يصاحب ذلك كله من انفعالات الرهبة أو الرغبة ، والخوف أو الحزن . ومن هذا كله تولدت المعانى والأغراض التى تضمنها أقدم وزن نشأ فى أحضان الحداء ، وهو الرجز كما سنرى (٣٠) .

على أن شيئا آخر يستوقفنا فيما روته المصادر عن ترنيمات الدعاء والتهليل بصفة عامة ، والحداء بنوع خاص ، وهو الدور الذى قامت به الابل فى تكوين شكل هذه الترنيمات . وهذا كان ولا يزال مثار نقاش بين الباحثين . والرأى الشائع أن الحركة الموقعة الناشئة من وقع أخفاف الابل فى أثناء سيرها هى التى أوحت الى العرب الأوائل بوزن الرجز . وقد حاول بعض الباحثين المعاصرين أن يوجدوا روابط بين أنواع من العروض وسير الابل ، ولكن بروكلمان يرى أن هذه المحاولات لم تسفر عن نتيجة (٣١) . ومع هذا فان كثيرا من القرائن يؤيد الرأى الشائع . فقد ارتبطت الابل بقبائل معد فى تاريخها البعيد ، حتى زعمت الرواية أن معد بن عدنان أول من وضع رحلا على جمل وناقة ، وأول من زمها بالنسع (٣٢) . بل ارتبطت الابل بمضر بن نزار الذين نشأ الرجز بينهم . ولا تخلو الرواية التى تنسب مضر الى الناقة الحمراء (مضر الحمراء) فى حين تنسب ربيعة الى الفرس (ربيعة الفرس) من قيمة فى معرفة طبيعة البيئة التى عاش فيها كل منهما (٣٣) . والرجز ـ كما تقول معاجم اللغة ـ يدل على حركة الناقة اذا أرادت النهوض فارتعدت رجلاها أو فخذاها ارتعادا متتابع الحركات ومنه سمى الرجز رجزا (٣٤) . واذا كان الحادى يرجِّع ـ كما تقول الرواية ـ أى يكبر

مقاطع كلامه ، فمن طبيعة الأشياء أن يكون ترجيعه مجاراة لحركات سير الحيوان الذى يرافقه ويحرص على تنشيطه واجتذابه اليه ، وهى ذاتها حركات طبيعية لا يقع فيها الخطأ والاختلاف ، فانها لا تجرى على نمط مصنوع يتفاوت فى الاتقان ولكنها تنساق اليها بالفطرة وتعود اليها فتعيدها بجميع أجزائها (٣٥) . ومثل هذا الاطراد يتحقق فى وزن الرجز (مستفعلن) مكررة عدة مرات ، ففيه تتساوى الأبعاد الزمنية وتطرد . أضف الى هذا كله ارتباط الابل بالجو الدينى ذاته فكانت مطايا أكثر القبائل التى كانت تحج الى البيت فى الجاهلية وفى القرآن الكريم : " والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير " (سورة الحج : ٣٦) وقرن العرب أيمانهم بالبيت فى مكة . وبالابل فى قولهم " لا والذى أممنه من كل أوب ـ لا والراقصات ببطن مر ـ لا والذى رقصن ببطحائه (راجع النجيرمى ص ٢٠) . وورد ذكرها فى تلبيات القبائل كما سنرى . ويقال ان الياس بن مضر أول من أهدى البدن الى البيت (٣٦) . ووصف المؤرخ نيلوس (المتوفى حوالى ٤٣٠م) Nilus مناسك العرب من أهل البادية فى شمالى الجزيرة العربية فذكر انهم كانوا يقدمون ناقة قربانا لمعبودهم ، فيطوفون بها ثلاثا وهم يترنمون بالغناء ، يتقدمهم رئيسهم ، ثم يطعن الناقة الطعنة الأولى بينما يواصل الحاضرون الترنم بالكلمات الأخيرة من الترنيمة ، ويعبون ـ فى سرعة فائقة من الدم الذى يتدفق من الناقة (٣٧) .

ولكن هل كان من الميسور على العربى ـ منذ البداية ـ أن يجارى خطوات الابل الطبيعية مجاراة دقيقة متقنة ؟ أو بعبارة أخرى : هل كان الوزن من وحى هذه الخطوات وحدها ؟ يبدو أن عملية الوزن لم

تكن في بدايتها من السهولة بالدرجة التي يتصورها بعض الناس وذلك لأمرين : أحدهما أن الجمع بين الوزن والقافية كان عملا مزدوجا يتطلب غير قليل من المعاناة ويضع في سبيل المنشيء قيودا يتعذر محها أحيانا أن يقع على الوزن السوى عند مواجهة القافية • والوزن السوى للرجز ـ في اصطلاح العروضيين ـ يتألف من " مستفعلن " تتكرر في الشطر (وهو البيت عندهم) ثلاث مرات • فالوزن هنا تام في عروضه وضروبه • ولكن العربي عند مواجهة القافية ، ربما اضطر الى تعديل التفعيلة الأخيرة في الضرب والعروض•والانحراف عن الوزن السوى الى نشاز لا يتسق وسائر تفعيلات الرجز • فقد تتحول " تفعيلة القافية " الى شيء آخر غير " مستفعلن " كما يتضح ذلك من الشواهد التي نوردها في الفقرة التالية • والأمر الثاني راجع الى خطوات الجمل ذاتها • فهي وان تشابهت، وانساقت بالفطرة ، فقد تسرع وقد تبطيء ، وقد تتأثر بغناء الحادى فتتشكل على نغمه • والابل ـ كما يقول أحد الباحثين ـ أكثر حبا للموسيقى من الخيل المدربة على السير على أنغام الجوقة الموسيقية • فمن الطبيعي أن يكون في عمل المنشيء شيء من التصرف الفني الى جانب اعتماده على المحاكاة والمجاراة • فالوزن ـ على هذا ـ ثمرة السليقة الفنية والمحاكاة معا • على أن تصرف المنشيء في الوزن لم يكن عملا منفصلا عن المحاكاة • فان الحادى بقدر ما كان يحاكي خطوات ناقته ، كانت هذه الخطوات تتشكل ـ في الوقت ذاته ـ بالوزن الذى ينشئه الحادى (٢٨) •

والآن نقف عند طائفة من الشواهد يرجع تاريخها ـ بطبيعة الحال ـ الى مابعد مرحلة النشأة ، ولكنها تحتفظ ببقايا من التجارب الأولية للوزن العروضي في هذه المرحلة ، أو على الأقل ترشدنا الى بعض معالم الطريق التي سلكتها هذه التجارب قبل أن يصل العرب الى وزن سوى مقفى ذى نسب زمانية متناسقة . وهذه الشواهد مجموعتان : الأولى جاهلية في معظمها وتدخل في باب السجع . والأخرى أحدث منها زمنا وتدخل في باب الرجز .

أما المجموعة الأولى فهى تلك الأسجاع التى انتهت الينا في العصر الجاهلى ، وهى صنفان . أحدهما أسجاع لاأثر للوزن العروضي فيها ، فهى نثر خالص ، وهذه من حيث مادتها ومضمونها لاتتصل من قريب ولامن بعيد بترنيمات الدعاء والتهليل . فاذا قال ساجع العرب: (اذا طلع الشرطان ، استوى الزمان ، وحضرت الأوطان ، وتهادى الجيران ـ اذا طلع البطين ، اقتضى الدين ، وظهر الزّين ، واقتفى العطار والقين ـ اذا طلع النجم ـ يعني الثريا ـ فالحر في حدم ، والعشب في حطم ، والعانات في كدم)(٣٩) . أو قال خطيبهم : (اعلموا أن أشجع القوم العطوف ، وخير الموت تحت ظلال السيوف ، ولاخير فيمن لاروية له عند الغضب ، ولافيمن اذا عوتب لم يعتب ، ومن لايرجى خيره ، ولايخاف شره)(٤٠) . أو قال كاهنهم ـ وكانوا قد أخفوا عنه جرادة وسألوه عما خبأوا له ليخبروه ـ : (خبأتم لى شيئا طار فسطع ، فتصوب فوقع ، في الأرض منه بقع ـ قالوا : لاد ـ أى بينه ـ قال : هو شئ

طار فاستطار ، ذو ذنب جرار ، وساق كالمنشار ، ورأس كالمسمار ...)(٤١) .
فهذا كله نثر مسجوع خال من أى وزن عرضى ، وهو ـ كما ترى ـ لا يتضمن ابتهالا ولا تحميدا ، وانما هو ألوان من المعرفة والحكمة ، لم يتح لها أن تشارك فى مواكب الغناء ، ولم يسمح لها المجال لاستيحاء حركة السير الموقعة . فظلت هكذا على حالها القديم ، سجعا لاوزن فيه .

أما مجموعة الصنف الثاني فهى أسجاع تظهر فيها آثار الوزن متعثرة حينا محكمة حينا آخر . فاذا سمعنا قول الملبى فى الجاهلية : " لبيك اللهم لبيك ، لبيك كفى ببيتنا بنيه ، ليس بمهجور ولا بلية ، لكنه من تربة زكية ، اربابه من صالحى البرية " . أو تلبية عك : " عك اليك عانيه ، عبادك اليمانيه ، كيما نحج الثانية ، على الشداد الناجيه " أو تلبية ثقيف : " لبيك ... ان ثقيفا قد أتوك ، وأخلفوا المال وقد رجوك " أو تلبية هذيل : " لبيك عن هذيل ، قد أدلجوا بليل ، فى ابل وخيل .. " أدركنا أن هذه الأسجاع ، وهى ترنيمات تتضمن الدعاء والتهليل ، أنشدها المنشدون فى أثناء سيرهم وطوافهم ، قد سرت فى أوصالها نسائم الوزن ، فأشاعت فى أجزائها وزن الرجز ، فبعض الأجزاء يتألف من ثلاث تفعيلات كقولهم : ليس بمهجور ولا بلية ، لكنه من تربة زكية ... الخ وبعضها يتألف من اثنتين كقولهم : عك اليك عانيه ، عبادك اليمانية ... وقد يتعثر الوزن فى بعضها فتتفاوت أجزاؤه فى الطول كقولهم : ان ثقيفا قد أتوك ، وأخلفوا المال وقد رجوك ، فالجزء الثانى أطول وان كان موزونا على تفعيلات الرجز . أو تضطرب تفعيلاته كقولهم : لبيك كفى ببيتنا بنيه ... فاذا قيل " كفى ببيتنا بنية كان موزونا وكلمة أقصر من العبارات التي تليه .

واذا سمعنا قول سعدى بنت كريز ، وكانت تتكهن : (مصباحه مصباح ، وقوله صلاح ، ودينه فلاح ، وأمره نجاح ، وقرنه نطاح ذلت له البطاح ، ماينفع الصياح ، لو وقع الذباح ، وسلت الصفاح ومدت الرماح) (٤٢) ، فهذه ترنيمة تحميد ، وكلها من وزن (مستفعلن مستفعل) وهو من الرجز أيضا . غير أنه حديث العهد نسبيا ، اذ أنه قيل بعد ظهور الاسلام (فى عصر الخلفاء الراشدين) .

ومن الصنف الثانى ايضا ترنيمة السحر التى يترنم بها المعوذ أو الراقى يعوذ فيها بقوى الطبيعة التى تكمن فى زعمه فى مظاهر الطبيعة الحية والساكنة . والغرض منها تحقيق مأرب تعذر حصوله ، أو التغلب على قوة تستعصى عليه . فاذا قالت المرأة فى رقيتها : " هوابه هوابه ، البرق والسحابه ، أخذته بمركن ، فحبه تمكن . أخذته بابره فلايزل فى عبر جلبته باشفى ، فقلبه لايهدأ . جلبته بمبرد ، فقلبه لايبرد (٤٣) . فمثل هذا تترنم به المرأة ، تريد تأخيذ زوجها واستجلاب قربه ووصاله والتأخيذ فى اللغة أن تمنع المرأة زوجها عن غيرها من النساء فلايكون الا لها وحدها . وهى هاهنا تعوذ به بالهوابه ، وهى النار أو الشمس المتوهجة ، وتعوذ بالبرق والسحابة ، وتؤخذه بالمركن ، الإجانة التى تغسل فيها الثياب ، وبالابرة . وتستجلبه بالإشفى والمبرد . وتسرى تفعيلات الرجز " مستفعلن مستفعل " فى أجزاء الرقية . غير أن السجع يعوزه الاحكام فى قولها (جلبته بإشفى فقلبه لايهدأ) . أما الزحاف الذى دخل فى التفعيلات ، فهو أمر جائز فى العروض ، وهو موجود فى كل شواهد الصنف الثانى التى أشرنا اليها .

وخلاصة ما أوردناه في هذه المجموعة من الشواهد تلتقي في ثلاث نتائج :

١ ـ أن الأسجاع التي أجرى عليها العرب الفصحاء تجاربهم الأولية للوزن العروضي هي أسجاع الدعاء والتهليل التي اقترنت بالحركة الموقعة وارتبطت بمعبودات العرب ومقدساتهم في الجاهلية .

٢ ـ أن الوزن الذي ظهر في هذه الأسجاع ، هو وزن الرجز وحده ، وهذا يتفق والرأي القائل بأن الرجز أقدم الأوزان التي عرفها العرب الفصحاء (٤٤) .

٣ ـ أن التجارب الأولية ـ من خلال هذه الأسجاع ـ دلت على أنها في سبيل التخلص من طريقة التركيب النثري والاتجاه الى النظم ، كانت تتعثر أحيانا ، سواء في اتقان السجع واحكامه ، أو في اقامة وزن التفعيلة ، أو في التسوية بين أجزاء الوزن في الطول .

(ز)

<u>أما المجموعة الأخرى</u> من الشواهد ، فهي بعض الأرجاز التي احتفظت ببقية من تلك التجارب الأولية . وفيها تظهر آثار التعثر في القافية والوزن على نحو ما رأيناه في الأسجاع :

١ ـ ورد في لسان العرب (ف د ن) قول الراجز القديم يصف الجعل :

أسود كالليل وليس بالليل

له جناحان وليس بالطير

يجر فدانا وليس بالثور

والفدان الآلة التي يحرث بها . ويلاحظ أنه جمع بين اللام والراء في القافية ، وانحرف بالتفعيلة الأخيرة ، تفعيلة القافية ، عن [illegible]

مفاعيلن (اذا حركنا الروى) أو مفاعيلْ ، (اذا وقفنا عليه بالسكون) .

٢ ـ وقول الدارمى فى المفضليات (٤٥) :

السود وردٌ عجلانْ والشيخُ شيخٌ ثكلانْ

والجوف جوفٌ حرّان أنعى اليك مرة بن سفيان

فالشطر الأخير أطول من الأشطار السابقة ، وينتهى كل منها بتفعيلة تنحرف عن الوزن السوى الى مستفعيلْ أو مفعولاتْ (وقد يحذف الساكن الثانى منها) .

٣ ـ ومثله قول الراجز (٤٦) :

ان بنىّ صبية صيفيّون أفلح من كان له ربعيّون

فالتفعيلة الأخيرة تجرى على مستفعيلْ أو مفعولاتْ .

٤ ـ وقول رؤبة (٤٧) :

هل لك فى ذى شبيبة معاهدْ على عيالٍ فى زمان جاحدْ

يرجوك اذ أبكاكَ كل رافدْ

فتفعيلة القافية هنا تجرى على مستفعلْ (كما فى الشطر الثانى) أو متفعلْ (يحذف الساكن الثانى) فى الشطرين الآخرين ، ومتفعل تساوى : فعولن .

٥ ـ وقول مرقش الأكبر (٤٨) :

(وقد جعله العروضيون من بحر السريع وهو فى أصله رجز) :

هل بالديار أن تجيب صَمَمْ لو كان رسمٌ ناطقاً كلّمْ

فتفعيلة القافية هنا تجرى على فعِلن أو فعْلن . ومثله ما ينتهى بوزن فاعلن وفاعلات فى النماذج التى عدها العروضيون من بحر السريع (مستفعلن

مستفعلن مفعولات) ٠

وقد ورد قول رؤبة (٤٩) :

سِلْقٌ خليلُ سلقةٍ طَلَّاسْ لا يسأم العَريسُ من افلاسْ

وهو ينتهى بالتفعيلة على وزن مفعولْ أو فعلات٠

ولعل فى هذه الشواهد توضيحا لما سبقت الاشارة اليه ، من أن انحراف التفعيلة الأخيرة ـ التى نسميها تفعيلة القافية ـ كانت نتيجة النكوص عن مواصلة الوزن السوى عند مواجهة القافية ، فنشأ فى نهايات الأشطار تفعيلات على أوزان مختلفة مثل :

فعولنْ ٠ مفاعلين ٠ فاعلُن ٠ مفعولاتُ ٠ فاعلاتُنْ ٠

وفى رأيى أن هذه التفعيلات التى كانت فى أصلها نشازا أو انحرافا عن الوزن السوى للرجز ، كانت أول ما لفت العرب الى امكان تشكيل أوزان أخرى ، فصار منها البراعم الأولى التى تولدت عنها ـ على مر الزمن وتحت مؤثرات مختلفة ـ بحور الشعر التى نظم فيها شعراء الجاهلية ، واستقرأها الخليل بن أحمد ، واستدرك عليها الأخفش٠

ومن المعروف عند أهل العروض أن بحور الشعر تقوم على ثماني تفاعيل هى : فعولن ٠ مفاعلين ٠ مفاعَلَتُنْ ٠ فاعلن ٠ فاعلاتن ٠ مُتَفاعِلن ٠ مستفعلن ٠ مفعولاتُ٠

ومن الواضح أن (مُفَاعَلَتُنْ) ليس سوى (مفاعلين) مع تحريك الساكن الخامس، وأن (متفاعلن) ليست سوى (مستفعلن) مع تحريك الساكن الثانى ٠

ومن هذا نخلص الى أن بحور الشعر التى نمت وازدهرت بعد مرحلة [illegible]

التى نتحد ث عنها ، كانت أو كان ومعظمها صورا متطورة من تفاعيل القافية التى انحرفت عن الوزن السوى للرجز .(٥٠)

تعليقات الحواشى

(١) لمحات من تاريخ الحياة الفكرية المصرية لعبد المجيد عابدين (١٩٦٤) ص ١٠ (وانظر هامش هذه الصفحة رقم ١٥) .

(٢) المصدر نفسه ٨ ـ ١١ .

(٣) اللغة الشاعرة لعباس محمود العقاد (١٩٦٠) ص ٨ وما يليها .

(٤) Introd. to the OT by A.Bentzen(1952)1/119-
R.Pfeiffer, Introd. to the OT(1940)P.647
الشعر العبرى لمحمد محمد القصاص (مكتبة الانجلو ـ القاهرة) .

(٥) Ency.Biblica(EBI)-Music.Vol.III PP 3225.

(٦) اللغة الشاعرة للعقاد ص ١٣٦ .

(٧) دائرة المعارف الاسلامية (مادة : رجز) ـ كارل بروكلمان : تاريخ الادب العربى ترجمة عبد الحليم النجار ج ١ ص ٥١ ـ كراتشكوفسكى : دراسات فى تاريخ الأدب العربى ترجمة من الروسية الى العربية طبعت فى موسكو ١٩٦٥ ـ ص ٩ ـ غرونباوم : دراسات فى الأدب العربى ترجمة احسان عباس ، أنيس فريحة ، نجم ، يازجى (ط ١٩٥٩) ص ١٣٦ ـ جرجى زيدان (تاريخ آداب اللغة العربية) ج ١ ص ٦١ .

(٨) بروكلمان (المصدر السابق) ١/ ٥١ .

(٩) راجع مقال طبيعة الشعر العربى للدكتور عبد الله الطيب (نشره المجمع اللغوى بالقاهرة سنة ١٩٦٣) ص ٢٧ وما يليها .

(١٠) اللغة الشاعرة ص ٢٨ ٠

(١١) المصدر السابق ص ١٣٨ ، ١١٩ ٠

(١٢) السيرة النبوية لابن هشام تحقيق السقا والابيارى وعبد الحفيظ شلبى (ط ١٩٥٥) ٢١٧/٣ ٠

(١٣) قارن بكلام ابن زيلة فى كتابه " الكافى فى الموسيقى " تحقيق زكريا يوسف (.القاهرة ١٩٦٤) ص ٤٧ ٠

(١٤) ابن زيلة (المصدر السابق) ص ٧١ ـ ٧٢ ٠

(١٥) التاريخ العربى القديم ترجمة فؤاد حسنين (١٩٥٨) ص ١٥٠ ومايليها تاريخ سورية لفيليب حتى ـ الترجمة العربية (بيروت ١٩٥٨) ص ٢٩ ـ ٣٠ ، ٩٥ ـ ١٠٣ ، ١٠٤ ـ ١٢٨) ٠

(١٦) قارن هذا بماورد عن العبرانيين Ency.of Religion&Ethics Vol.I PP.870,(Colours EBI-(art)1-871

(١٧) فقه اللغة للثعالبى تحقيق السقا والابيارى وشلبى (١٩٥٤) ص ٧٧ ـ ٨٠ ، ١٧٢ ـ ٢٠٤ ـ جواهر الألفاظ لقدامة بن جعفر (١٩٣٢) ص ٣٧٧ ، ٤٢٥ ـ ٤٢٨ ، ٤٣٠ ـ ٤٣٢ ٠

(١٨) زعم بعض الباحثين أن كلمة (شيرو) فى البابلية ، (شيرا) فى العبرية هى أصل كلمة شعر فى العربية ٠ وهو زعم غير صحيح وقد برهن بروكلمان علـى خطئه (بروكلمان ـ المصدر السابق ٤٦/١ هامش) ٠ والراجح عندى أن شيرو ، شيرا يقابلان (سيرة) فى العربية ونعنى فى الأصل ترنيمة المسيرة ، مشتقة من السير ٠ ولايزال كثير من أهالى السودان يسمون أغنية موكـب العرس (السيرة) الى يومنا هذا ٠ والى جانب هذا النوع من الأغانى عرف الساميون أنواعا أخرى من الغناء كانوا يمارسونها فى حالة السكون فـى معابدهم ومجالسهم يجتمع لها أهل الغناء والموسيقى
(Ebi-Music 3 3225 ff)

(١٩) اللسان : نصب • ولانظن أن للنصب علاقة بالأنصاب التى تقدم عليها الأغاحى فى الجاهلية (تاريخ الموسيقى العربية لفارمر ترجمة حسين نصار ص ١٧) • كما نستبعد أن كون الأصل فيه معنى الرفع والاعلاء ، أى رفع الصوت(القيان والغناء فى العصر الجاهلى لناصر الدين الأسد ص ١٠١) • ويختلف بعض الأقوال فى أيهما أقدم الحداء أو النصب، ولكن القرائن تدل على أن الحداء أقدم أغانى البادية كما قلنا •

(٢٠) روى أن رباح بن المغترف غنى غناء النصب فى زمان عمر (رضى) ، ويفهم من سياق الرواية أنه غناه منفردا ، كما أن التشابه بين النصب والحداء ، فيماورد من أخبار وأوصاف قد يؤيد أنه كان مثل لحداء من الغناء المنفرد (لسان / نصب ـ الاصابة لابن حجر (رباح بن المغترف) رقم ٢٥٦١ ـ نسب قريش للزبيرى (نشر بروفنسال (دار المعارف ٤٤٨) ومع هذا فمن الجائز أن الجماعة كانت تنشد ه مجتمعة ولم تكن قريش تعرف من الغناء غير النصب(انظر التعليق ١٢)ـ مروج الذهب (١٩٥٨)جـ ٤ ص ٢٢٢ •

(٢١) القيان والغناء فى العصر الجاهلى لناصر الدين الأسد ص ١٠٢ نقلا عن الفائق والنقائض•

(٢٢) المحبر لابن حبيب(طبعة الهند) ص ٣١١ ـ ٣١٥•

(٢٣) اليعقوبى : تاريخه (ط• بيروت) ١/٢٥٥ـ٢٥٦•

(٢٤) اللسان (غبر) ـ بلوغ الأرب(١٣٤٢هـ) ١/٢٧٠•

(٢٥) النهاية لابن الأثير تحقيق الطناحى ٤/١٠٠ـ اللسان (قلس) ـ نهاية الأرب للنويرى ٤/١٤٢ (فلس صوابها بالقاف) • وانظر كذلك من المحافل المقدسة القديمة ماورد فى مادة hag فى القاموس العبرى BDB • وفى BDB (مادة Idolatry) ٢/١٥٦ ، مادة (Feasts ، ٢/١٥٠٩ـ١٥١٠)•

(٢٦) قارن دراسات فى الأدب العربى لغوستاف فون فرنباوم ترجمة احسان عباس وآخرين (ط · بيروت) ص ١٦٠ــ١٦٤ ·

(٢٧) مروج الذهب للمسعودى (ا مصر ١٩٥٨) ٤ / ٢٢١ــ٢٢٢ــ العمدة لابن رشيق (نشر م ·عبد الحميد) ص ٣١٢ ـ بلوغ الأرب للألوسى (١٣٤٢هـ) ١ / ٣٦٩ ـ ٣٧٠ ـ الموسيقى العربية لأحمد تيمور ص ١٠ ·

(٢٨) سفر نحميا ١٢ : ٨ ، قاموس عبرى BDB مادة (ى د هـ) ص ٣٩٢ ويضاف الى ماسبق : ما أورده Tregelles فى ترجمته الانجليزية لقاموس جزينيوس وطبعه فى USA ١٩٨٠ ـ قال فى تأصيل الصيغة العبرية : انها مأخوذة من الاسم السامى القديم الدال على (يد الانسان) فاشتقت العبرية افعالا من المجردة والمزيدة وهى تقابل اللفظ العربى ودى العبرى יָדָה (ص ٣٣٢م) أما الصيغة العبرية הוֹדָה فهى على وزن هفعيل الذى يقابل (أفعل فى العربية) وهى فعل ماض ، ومضارعها יוֹדֶה الخ (انظر المزامير ٢٨ : ٧)

(٢٩) بلوغ الأرب للألوسى ٢ / ٣٢٥ ـ ٣٢٦ ·

(٣٠) راجع فى أصل الفنون عامة وعلاقتها بالدين كتاب :

Yrjö Hirn; The Origins of Art (London 1900).

وفى علاقة أصل الشعر العربى بالسحر : انظر بروكلمان (المصدر السابق) ١ / ٥١ ـ غرونباوم (المصدر السابق) ص ١٣٦ · وفى مختلف المعانى والأغراض التى تناولها الرجز وانظر بروكلمان ١ / ٤٤ ـ ٤٦ ، الشعر الشعبى لحسين نصار (من سلسلة اقرأ) ـ مجموع أشعار العرب ويشتمل على ديوان رؤبة جمعها وليم بن الورد (برلين ١٩٠٣) ـ أراجيز العرب للسيد توفيق البكرى ـ تاريخ الآداب العربية لكارلو نلينو (ط ١٩٥٤) ص ١٦٧ وما بعدها ·

(٣١) بروكلمان (المصدر السابق) ١ / ٥٢ ٠

(٣٢) تاريخ اليعقوبي (ط بيروت) ١ / ٢٢٣ ٠

(٣٣) لمحات من تاريخ الحياة الفكرية لعبد المجيد عابدين ص ١٥ ٠

(٣٤) لسان العرب (رجز) ٠

(٣٥) العقاد (اللغة الشاعرة) ص ٢٨ ٠

(٣٦) تاريخ اليعقوبي (المصدر السابق) ١ / ٢٢٧ ، وفي بعض معتقدات العرب في الجاهلية والرد عليها أنظر تفسير الطبري (ط ١٩٥٤) ٧ / ٨٦ ـ ٩٣ ٠

(٣٧) R.Smith; The Religion of the Semites(1959) P.338

(٣٨) كراتشكوفسكي (دراسات في تاريخ الأدب) ص ٩ ـ ١٠ ٠

(٣٩) بلوغ الأرب ٣ / ٢٣٧ ٠ الشرطان كوكبان اذا طلعا رجع القوم عن البوادي الى أوطانهم ومياههم ، والتقى الجيران بعد أن كانوا متفرقين في النجع ، فتهادوا ، أي أهدى بعضهم الى بعض ٠ واذا طلع البطين ، وقد رجعوا الى أوطانهم واطمأنوا ، اقتضى بعضهم بعضا ماله عليه من الدين ، وظهر عليهم التجميل والتزين ، وأحسنوا الى العطار والحداد لحاجتهم الى شراء الطيب واصلاح مارث من آلاتهم وأمتعتهم ٠ واذا طلع النجم اشتد الحر وييس العشب وتعاضت حمر الوحش ٠

(٤٠) بلوغ الأرب ٣ / ١٧٥ ٠

(٤١) نفسه ٣ / ٢٧٦ ٠ وراجع بدايات الشعر العربي لعوني عبد الرؤوف (ط ١٩٧٦ ٠ ص ٦٦ وما يليها ٠

(٤٢) نهاية الأرب للنويري ٣ / ١٣١ وهو رواية منسوبة الى عثمان بن عفان (رضي) عن خالته سعدى بنت كريز في مدح النبي (ص) ٠

(٤٣) بلوغ الأرب ٣ / ٧ ٠

(٤٤) انظر المراجع الواردة فى التعليق رقم (٧) .

(٤٥) المرشد الى فهم أشعار العرب لعبد الله الطيب ١/ ٩٦ (ط ١٩٥٥) .

(٤٦) الحيوان للجاحظ (تحقيق عبد السلام هارون) ١/ ١٠٩ .

(٤٧) مجموع أشعار العرب ويشمل ديوان رؤبة (١٩٠٣) ص ١٩٠ .

(٤٨) المفضلية رقم ٥٤ فى المفضليات تحقيق شاكر هارون . وانظر المرشد الى فهم أشعار العرب لعبد الله الطيب ١/ ٩٥-٩٦ حيث ناقش العروضيين فى خلطهم بين بحرى السريع والرجز .

(٤٩) مجموع أشعار العرب (المصدر السابق) ص ١٩٠ .

(٥٠) انظر : (بدايات الشعر العربى بين الكم والكيف) دراسة د . محمد عونى عبد الرءوف ط القاهرة ١٩٧٦ . ص ٧٥ وما يليها .

الجزء الثانى

تأصيل الحدث التاريخى فى العصور الاسلامية

أولا : القرماطيون والقرامطة

ثانيا : قبائل مورو وكافور الاخشيدى

ثالثا : علماء العربية فى الاندلس - هل عرفوا مبادىء المنهج اللغوى المقارن قبل أن يعرفه الأوربيون ؟

أولا : القرماطيون*

ظهر هذا الاسم فى المصادر العربية ، لأول مرة فيما نعلم ، فى أخبار ثورة الزنج التى قامت فى البصرة وهددت كيان الدولة العباسية ما يقرب من أربعة عشر عاما ٢٥٥ ـ ٢٧٠هـ/ ٨٦٩ـ٨٨٣م (١) .

ولعل أكثر الذين اشتركوا فى هذه الثورة كانوا من الرقيق الذين جلبوا من البلاد الافريقية ، ولاسيما بلاد الزنج (أى الصومال) ، واستخدمهم ملاك الأرض فى ازالة الطبقة الملحية ـ أى السباخ ـ التى تغطى الأراضى فى سهول البصرة ، وكشف التربة الصالحة للزراعة ، ونقل السباخ وجعله فى أكوام أو تلال للافادة منه فى الوقت نفسه(٢).

كان من بين هؤلاء الافريقيين زنج من الصومال كما قلنا ، ولعلهم كانوا أكثر عددا لقرب بلادهم من العراق وسهولة النزوح اليه ، وكان منهم النوبة الذين انتقلوا من سودان وادى النيل وكان منهم القرماطيون ، وهم جنس من أجناس السودان الغربى .

اشتهر من القرماطيين فى هذه الثورة قائد لعب فيها دورا هاما ، وهو راشد القرماطى (٣) .

---

* بحث نشر فى أخر عدد من عام ١٩٦٣ من المجلة التاريخية المصرية التى تصدرها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالقاهرة .

وأول من صنف في أخبار ثورة الزنج في العراق ـ على ما ذكره المسعودي ـ هو محمد بن الحسن بن سهل المتوفى حوالي ٢٨٥هـ[٤] . ولكننا لانعرف شيئا عن هذا الكتاب الا مانقله عنه ابن جرير الطبري في تاريخه (مثلا جـ ١١ ص ١٩٠) . ولم يحفظ لنا الزمن وصفا معاصرا كاملا لثورة الزنج الا ماورد في تاريخ ابن جرير الطبري (٢٢٤ ـ ٣١٠هـ) . ولهذا يعد من أقدم المصادر التي روت أخبار الثورة ودور القرماطيين فيها . ولابد أن يكون الطبري قد عاصر أحداث هذه الثورة وشهد بعضها ـ على الأقل .

ومن بعده أشار المسعودي (ت ٣٤٦هـ ـ ٠) الى القرماطي (في النص: القوماطي) من بين شعوب السودان التي أمعنت في الغرب وذكر أن لهم ملكا ودار مملكة[٥] .

ومن بعد هما كاتب عربي عاش في القرن الرابع الهجري ، وهو المقدسي في كتابه (أحسن التقاسيم) (كتبه حوالي ٣٨٥هـ ـ/ ٩٨٥م) أورد تعريفا سريعا موجزا بالقرماطيين ، فوصفهم بأنهم جنس من أجناس السودان الكثيرة التي تتاخم أرضهم بلاد المغرب ومصر من قبل الجنوب ، وأنهم يتعاملون بالملح ، والنوبة والحبشة بالثياب[٦] .

وفيماعدا هذه المصادر ، لانكاد نجد من كتاب العرب من أضاف شيئا جديدا الى الاشارات القليلة التي وردت فيها .

وهذا أمر يسترعي انتباهنا ويدعونا الى أن نتساءل :
ماحقيقة هذه التسمية ؟ وكيف نعلل سكوت معظم المؤرخين والجغرافيين العرب عن أخبار هذه الجماعة وتاريخها ؟

أما التعرف على حقيقة هذه التسمية ، فالسبيل اليه أحد احتمالين : فاما أن يكون لفظ القرماطيين قد أطلق على هذه الجماعة بعد انتقالهم الى العراق ، كأن يكون مشتقا من لهجة أو مصطلح عراقي فهو في هذه الحالة ليس مكتسبا من موطنهم الافريقي الأول . واما أن يكون الاسم ـ في مادته الأصلية ـ علما معروفا على شعب قديم من شعوب السودان الغربي حملوه معهم من موطنهم الافريقي .

واذا كان من اليسير أن نرد بعض الاسماء التي اطلقت على زنوج البصرة الى مصطلحات محلية نشأت في العراق ، مثل قولهم : الفراتية وهم الزنوج الذين سكنوا منطقة فرات البصرة ، والشورجية وهم الزنوج الذين عملوا في ازالة الشورج وهو الزبد الملحي الذي كانت تجلبه المياه الى أرض العراق الأدنى ، ثم تنحسر عنها ـ فليس من اليسير أن نرد كلمة مثل " القرماطيين " الى اصطلاح عراقي . ولا أظن أن الاستاذ ماسينيون قد أدرك وجه الصواب في المحاولة التي عبر عنها في مقالته عن القرامطة (٧) اذ يقول : (والأكثر احتمالا أن يكون لفظ القرامطة مأخوذا من لهجة " واسط " الآرامية المحلية اذ ورد فيها لفظ " قرمطا " ومعناه المدلس . وقبل أن تقوم حركة القرامطة بسنوات ، أي منذ سنة ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م ، ظهرت في هذه المنطقة ذاتها ، فرقة تسمى " القرماطية " الى جانب فرقة الفراتية ، وكانت من بين فرق الجند المحاربة في ثورة الزنج) .

فمثل هذه المحاولة هى فى الواقع خلط بين جماعتين وحركتين مبنى على مجرد التشابه اللفظى . واذا جاز أن يكون لفظ القرامطة مشتقا من لهجة محلية ،على اعتبار ان معظم أفرادهم كانوا من العرب والأنباط الذين رسخت أصولهم فى البيئة العراقية وماجاورها من عهود بعيدة ، فانه من المستبعد أن يكون لفظ القرماطيين من نفس الاشتقاق ولاسيما اذا عرفنا أن حركة الزنج قد اختلفت الى حد كبير فى زمانها ووسائلها وطبيعتها عن حركة القرامطة ، وأن المسعودى وصفهم بأنهم من الشعوب السودانية التى امعنت فى المغرب ، وأن المقدسى حين تحدث عن القرماطيين قد أكد أنهم جنس كسائر أجناس السودان ، ولم يشر واحد منهما الى صلتهم بالبيئة العراقية ، ولا بثورة الزنج فى العراق ، وكلاهما ـ على اقتضابه ـ يدل على أنهم جنس معروف فى افريقية ، لهم طريقة فى التعامل (فى موطنهم الافريقى طبعا) تختلف عن طريقة النوبة والحبشة . ولهم ملك ودار مملكة ،فالأرجح أن يكون اسم القرماطيين مكتسبا من موطنهم الأصلى فى افريقية ، وأن يكونوا قد حملوه الى العراق ، كما حمل الزنج والنوبة أسماءهم واحتفظوا بها فى العراق وغيره من المهاجر التى انتقلوا اليها .

وهنا نقف عند السؤال الثانى : كيف نعلل سكوت معظم المؤرخين الجغرافيين العرب عن التعريف الكافى بهذا الشعب وتاريخه فى موطنه لافريقى ، على الرغم مما نعرفه من حرص هؤلاء وأولئك على تدوين كل ما انتهى اليهم عن شعوب السودان وممالكهم وأخبارهم ؟ .

الواقع أن الشعوب التي عرفها العرب في منطقة السودان الغربي وتحدثوا عنها حديثا مفصلا ، هي الشعوب التي برزت في صورة ممالك أو سلطنات اسلامية واستمرت علاقاتها بالعالم الاسلامي زمانا غير قصير . ولا ريب في أن أكثر شعوب السودان الغربي قد أبرزها النشاط الاسلامي والنشاط التجاري متضافرين في تلك العصور ، فلمعت أسماؤها في ميادين الحرب والسياسة والتجارة والدعوة الى الاسلام . ومن أجل هذا ظفرت فيما كتبه العرب بنصيب غير قليل .

ولم يكن القرماطيون من جملة هذه الكثرة الغالبة من شعوب السودان الغربي ، ولم يتح لهم في بلادهم في العصور الاسلامية ما اتيح لأخوانهم من فرص التفوق في أي مجال من المجالات المشار اليها والا لما اغفل معظم المؤرخين العرب ذكرهم الى هذا الحد .

واذا أردنا أن نبحث عن مثال من تلك الشعوب القليلة التي ضعف شأنها بانتشار الاسلام في المنطقة الواقعة جنوبي بلاد المغرب ، فان لدينا حالة معينة ذكرها الادريسي ، وهي حالة أهل " ودّان " اذ يقول :(١٨)

(وأما أرض ودّان فانها جزائر نخل متصلة بين غرب وشمال الى ناحية البحر ، وكانت فيما سلف أكثر الأرض عمارة ، وكان الملك في أهلها تاشئا متوارثا ، الى أن جاء دين الاسلام فخافوا من المسلمين فتوغلوا هربا في بلاد الصحراء فتفرقوا ، ولم يبق بها الآن الا مدينة " داود "(١٩) وهي الآن (أي في القرن السادس الهجري) خراب ليس بها الا بقايا قوم من السودان ـ معايشهم كدرة وأمورهم نكدة) .

هذا النص يعبر عن جزء من حدث كان أوسع مجالا مما ذكره الادريسي فلم تكن أرض ودّان ـ في حقيقة الأمر ـ الا مركزا واقعا في طريق تجاري طويل عامر بسكانه ، أهم مراكزه : فزان ـ جرمه ودان . وكان هذا الطريق عامرا مزدهرا منذ عصور قديمة ، قبل الاسلام . وظل كذلك الى أن تغرق أهله بسبب الغزوات الاسلامية من جهة ، واشتداد العواصف الرملية عليه من جهة أخرى ، مما حدا بالتجارة الى التحول عنه الى طريق آخر (طريق سجلماسة ـ اودغشت ـ منحنى النيجر) . وكان يعيش على ذلك الطريق التجاري ، منذ عصور ماقبل الميلاد ، شعب سماه اليونان (Garamantes) (الجرمانت) عاشوا في حالة ازدهار في زمان المؤرخ اليوناني هيرودوت (حوالي ٥٠٠ ق.م) وامتدت مساكنهم على طول ذلك الطريق التجاري . وفي فزان تقع منطقة جرمه Garomo التي نسبوا اليها ، وهي مركزهم الاول ، وفيها استقرت جماعات منهم ، ونالوا نصيبا من الحضارة ، وامتصوا قدرا صالحا من الثقافة المصرية أو الليبية القديمة ، واستخدموا مركبات الخيل . ومنهم من امتدت مساكنهم الى داخل الواحات الواقعة غربي مصر . فاذا اتجهنا الى المراكز الجنوبية من هذا الطريق ، وجدنا فريقا من الجرمانتيين قد ضربوا خيامهم في الصحاري الجنوبية ، بعيدا عن مركزهم الأول جرمه ، وامتدت مساكنهم الى واحة العوينات . وأقامت جماعات منهم في المنطقة التي سميت فيمابعد " بلاد الكانم " وفي تيبستي (١٠) . ويتضح من هذا كله أن الجرمانتيين كانوا قائمين على مراكز هذا الطريق وماتفرع منها شرقا ، وظلوا كذلك في عصور مابعد الميلاد اسما لامعا يجد عناية المؤرخين من اليونان والرومان . ولابد أن هذا الشعب كان حينئذ على قدر كبير من القوة والنفوذ ، فلما هجر التجار هذا الطريق ،

وتفرق أهله ، تقطعت الوشائج بين جماعات الجرمانتين ، والتمس بعضهم سبيل الهجرة الى مناطق أخرى ،وصارت كل فئة وقد اختلطت بعناصر حامية وزنجية مختلفة على حسب مؤثرات البيئات التى عاشوا فيهما ، وعرفت فئات منهم باسم خاص يختلف عن الاسم القديم المشترك .

ومن المؤكد الآن بصفة عامة أن الجرمانت الذين عاشوا في تيبستى وماحولها هم النواة التى كونت جماعة التبو . ولعل هذه الجماعة نفسها هى التى عرفت فى شمال دارفور باسم الجروان أو القرعان . " ولاتزال بقاياهم يؤلفون جزءا من مجموعة سكان دارفور فى الوقت الحاضر " .

أما الاسم القديم المشترك ، وهو الجرمانتيون ، فلايطلق فى الوقت الحاضر على أية جماعة من هذه الشعوب . فقد عفى الزمن عليه ، وتنوسى على مر العصور .

على أنه من المستغرب أن يختفى اسم (الجرمانت) من كتب العرب ومن المصادر العربية المبكرة ، ولاسيما اذا عرفنا أن العرب المسلمين لابد أنهم أدركوا فترة من قوة هذا الشعب قبل أن يصل الى حضيض الوهن والضعف . ولقد عرف المسلمون الأولون (جرمه) المركز الاول لهذا الشعب وروى المؤرخون العرب أن عقبة بن نافع عندما قدم (ودان) فافتتحها سأل أهلها : هل من ورائكم أحد ؟ فقيل له : جرمه ، وهى مدينة فزان العظمى . فسار اليها ثمانى ليال من ودان ، فدعا أهلها الى الاسلام فأجابوا (١١) .

ولكن لايلبث هذا الاستغراب أن يزول اذا انتهينا الى احتمال أن يكون كتاب العرب الأوائل كالطبرى والمقدسى والمسعودى عرفوا هذا الاسم القديم المشترك فى صيغة (القرماطيين) • وما أشبه أن يكون تعريبا للفظ (الجرمانتيين) •

ومن المحتمل أن يكون الفاتحون من العرب الأوائل عرفوا هذه الجماعة عندما غزوا مدينة جرمه ، وربما حملوا معهم فئات منهم أسرى الى البلاد الاسلامية •

فاذا صح هذا أمكن القول بأن فئات من الجرمانت (القرماطيين) كانوا من بين الافريقيين الذين انتقلوا الى العراق فى عصور الاسلام المبكرة ، وظهروا فى ثورة الزنج فى ايام العباسيين ، وكان لهم دور فى هذه الثورة • ولابد أنهم عاشوا فى العراق قبل قيام الثورة بزمن طويل ، فقد كانوا يتكلمون العربية (١٢) •

ومن المحتمل أن مملكة القرماطيين (الجرمانت) فى السودان الغربى ، وهى التى أشار اليها المسعودى ، أخذت فى الضعف منذ القرن الرابع الهجرى • وربما لم ينقض هذا القرن حتى كانت قد تلاشت •

وعندما أخذ علماء القرون التالية ، القرن الخامس الهجرى وما يليه ، يسجلون شعوب السودان الغربى وممالكهم ، لم يكن للجرمانت هؤلاء شأن ولا سلطان فى بلادهم ، فأغفلوا ذكرهم •

- ٤٩ -

تعليقــات الحواشـــــى

(١) أهم ماكتب عنها :

(١) تاريخ الطبرى جـ ١١ (الحسينة)

(٢) نولدكه Noldeke; shetches from eastern History (London 1892)

(٣) عبد العزيز الدورى : دراسات فى العصور العباسية المتأخـــرة (١٩٤٥ بغداد) ص ٧٥ ــ ١٠٥ .

(٤) ثورة الزنج (بغداد ١٩٥٤) لفيصل السامر .

(٢) ثورة الزنج لفيصل السامر (بغداد ١٩٥٤) ص ٢٣ ، دائرة المعـــارف الاسلامية (الترجمة العربية) ــ زنج (المجلد العاشر) .

(٣) تاريخ الطبرى ١١/ ١٧٤ (مطبعة الحسينية بمصر) .

(٤) مروج الذهب (نشر محى الدين عبد الحميد) ٤/ ١٩٥ .

(٥) مروج ٢/ ٢٠ .

(٦) أحسن التقاسيم ص ٢٤١ ــ ٢٤٢ .

(٧) Shorter Encye of Islan(Karmitians)

وقد أشار ماسينيون الى فكرته تلك فى مقاله (الزنج) فى دائرة المعـــارف الاسلامية (الترجمة العربية ــ المجلد العاشر) .

(٨) وصف افريقيا الشمالية (١٩٥٧) ص ٢٣ (من كتاب الادريسى " نزهـــة المشتاق " ط الجزائر) .

(٩) قرأها بالمر (واو) ص ٤ ، ٨ ولعل الصحيح " ودان " .

(١٠) بالمر ٤ ، ٨ ، ١٧ هامش.

(١١) فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم (تحقيق عبد المنعم عامر) ص ٢٦٢ ، ٢٦٣/ معجم البلدان لياقوت (جرمه) •

(١٢) تاريخ الطبرى ١١/١٧٩•

ثانيا : قبائل مورو وكافور الاخشيدى*

هناك جوانب مازالت يكتنفها الغموض من تاريخ كافور الاخشيدى وهو آخر حكام مصر من دولة الاخشيد بين (٢٥٤ — ٣٥٨هـ / ٨٦٨—٩٦٩م) . من هذه الجوانب تاريخ ميلاده ، ووفاته ، وموطنه الأصلى من أفريقية .

ومن الممكن — بمقارنة الأخبار والأحداث — أن نقدّر — على وجه التقريب — سنة ميلاده (حوالى ٢٩٤ هـ/ ٩٠٦م) وسنة وفاته (حوالى ٣٥٧ هـ — ٩٦٧/ ٦٨م) . أما موطنه الأصلى فى أفريقية فهو أمر أكثر غموضا ، وأحوج الى تأمل أبعد وأعمق .

يروى عدد من مؤلفى العصور الاسلامية المتأخرة (ابن العماد فى شذرات الذهب ٢١/٣ ، وابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة ٢/٤ ، والسيوطى فى حسن المحاضرة ١٢/٢) أن كافورا كان من أصل حبشى . ولكن القرائن والشواهد الأخرى لاتؤيد هذه الرواية فمن الواضح أن هؤلاء المؤلفين قد خلطوا بين شخصين فى التاريخ يحملان اسم " كافور " ، وقد بدأ هذا الخلط بينهما منذ القرن السابع الهجرى . ويتضح هذا من النص الذى ورد فى معجم البلدان لياقوت

---

* النص العربى للبحث الذى قدم بالانجليزية بعنوان The Origin of Kafûr al-Ikhshidi الى مؤتمر التاريخ بمدرسة الدراسات الافريقية والشرقية بلندن فى يوليو ١٩٦١ .

الحموى (فى مادة " بست ") ، حيث ذكر كافور الاخشيدى وزعم أنه نشأ فى مدينة " صور " الواقعة على الساحل الشامى من سواحل البحر الأبيض المتوسط ، ووصفه بأنه شاعر وأورد له بيتين من وصف مدينة بست التى تقع بين غزنة وهراة فى بلاد فارس ٠ وتحدثنا مصادر أخرى عن شخص اسمه " كافور بن عبد الله " عاش فى (صور) وتوفى فى سنة ٥٢١هـ/ ١١٢٧م ٠ وكان شاعرا من أصل حبشى ، كثير الرحلة والتطواف فى بلدان الشرق (راجع السيوطى فى رسالة رفع شأن الحبشان (مخطوطة بدار الكتب المصرية (رقم ٧٢٦ ـ تاريخ تيمور) ص ١٠٠ ـ ١٠١) ٠

فمن الجلى أن كافور بن عبد الله هذا شخص آخر غير كافور الأخشيدى ٠ وانما التبس أمرهما على مؤلفى القرن السابع الهجرى ومابعده ، عندما لحظوا أنهما يتفقان فى بعض الصفات ، فقد كان كافور بن عبد الله هذا خصيا أسود (راجع نفس المخطوطة السابق ذكرها) ٠ وهما صفتان معروفتان لكافور الاخشيدى ٠ هذا على الرغم من الفوارق الشاسعة التى فصلت بين الشخصين ، ولاسيما الفارق الزمنى الكبير الذى كان بينهما ٠

ومن الطبيعى أن يترتب على هذا الالتباس أو الخلط ظهور تلك الرواية المتأخرة التى زعمت أن كافور الاخشيدى من أصل حبشى وهو زعم غير صحيح كما يتبين من أقوال معاصرى كافور الاخشيدى ، ولاسيما المتنبى الشاعر الذى رآه ولزمه فترة من الزمن ، ونظم فيه عددا من القصائد مادحا وهاجيا ٠

وصف المتنبى فى بعض أهاجيه كافورا بأنه " الأسود اللابى " نسبة الى " اللاب " . واللاب - كما يقول ياقوت فى معجم البلدان - موضع فى بلاد النوبة يجلب منه صنف من الرقيق . وفى بيت آخر وصف المتنبى كافورا بأنه نُوَيْبِىّ وأمه نوبية (تصغير نوبى ونوبية) (راجع ديوان المتنبى) .

ويظهر من مقارنة النصوص العربية القديمة التى تحدثت عن النوبة ، أن اسم النوبة كان يطلق - على الاقل - على صنفين من الشعوب الافريقية : صنف من الزنوج أو المتزنجين سكنوا فى بلاد النوبة العليا وفى التلال الغربية . وصنف يختلف تماما فى شكله وسماته عن الصنف الأول (قارن الادريسى فى وصف افريقيا الشمالية (ط الجزائر ١٩٥٧ ص ١٣ - ١٤) ومعظم الصنف الثانى عاشوا فى بلاد النوبة السفلى والمناطق المجاورة . ويمكن أن يقال ان هذا التقسيم الثنائى كان معروفا لدى الشعوب المجاورة لبلاد النوبة منذ زمن أقدم بكثير من زمن المصادر العربية . ففى نقش عيزانا الاثيوبى الذى غزا بلاد النوبة فى القرن الرابع الميلادى ، تحدث عن النوبة ، فوصف بعضهم بالنوبة الحمر ، وبعضهم الآخر بالنوبة السود .

ولاجدال فى أن السمات الشكلية التى وُصف بها كافور ، سواء فى شعر المتنبى أم فى أقوال غيره من معاصريه ، تؤكد أنه من سلالة زنجية أو متزنجة .

ولسنا نعرف ـ على وجه التحقيق ـ أين كانت (اللاب) التي أشار اليها المتنبي وتحدث عنها ياقوت • ولكن يوجد الآن تلال في غرب السودان تسمى "ليبو" Lebu كانت ولاتزال من مساكن النوبا • وكانت فيما سبق مأوى لقبائل " مورو " أو " مرو " ومازال فيها بقايا منهم وقد وصف سلجمان (Pagen Tribés, pp.371, 483) ونادل (The Nuba P.78) ملامح المرو وسماتهم وعاداتهم • وقد نجد فيها بعض السمات والعادات التي تذكرنا بما وصف به كافور ، كغلظ الشفاه وتشقيق الشفة السفلى منها (على الرغم من أن عادة تشقيقها تقتصر الآن على نساء المرو) وزخرفة بعض أعضاء البدن في سن معينة بقصد ينقشونها في الجلد •

ولكن اذا صح أن كافورا كان ينتمي أصلا الى قبائل المرو ، فهل كانت هذه القبائل معروفة في زمن كافور او قبل زمانه ؟ هل عرفها العرب الأوائل وأشاروا اليها في مدوناتهم ؟

اذا رجعنا الى أبي عثمان الجاحظ (١٥٩ ـ ٢٥٥هـ/ ٧٧٥ـ٨٦٨م) وهو من عصر سابق على عصر كافور ، وجدنا في رسالته (فخر السودان على البيضان (ط التقدم بالقاهرة ص ٧٦) اشارة الى قبائل (مرو) مقترنة بالزغاوة والنوبة • ثم يأتي المؤرخ العربي ابن واضح اليعقوبي ، وهو من أقدم مؤرخي العرب (توفي حوالي ٢٩٨هـ/ ٩١٠) فيتحدث في كتابه (تاريخ اليعقوبي) عن صنفين من أصناف الرقيق ينتميان الى شعبي " مرو وزغاوة " (ط النجف بالعراق ١٩٥٧ ص ٩٨) •

ثالثا : علماء العربية في الاندلس هل عرفوا مبادئ المنهج اللغوى المقارن قبل أن يعرفه الاوربيون ؟*

هناك كثير من علماء العربية القدماء المشارقة منهم والمغاربة كانوا يعرفون لغات أجنبية بعضها سامى الاصل وبعضها غير سامى . " والواقع أن مجرد المعرفة بعدد من اللغات لا يعنى قيام بحث مقارن " (١) وفيما يلى نسوق الأمثلة التالية :

- كثير من هؤلاء العلماء عرفوا لغات غير سامية الاصل ، كالفارسية أو التركية . ولا مجال لهؤلاء أن يعقدوا مقارنات لغوية بين العربية والفارسية لأنهما من أسرتين مختلفتين . فالفارسية تنتمى الى مجموعة اللغات الهندية الأوربية . ولا مجال لمن عرف منهم التركية الى جانب العربية أن يعقد بينهما مقارنة لغوية ، لأنهما من أسرتين مختلفتين . فالتركية تنتمى الى مجموعة اللغات الأورالية ـ الألتائية (من الفرع الآسيوى) (٢) وقد نجد بعض هؤلاء العلماء كأحمد بن حمدان الرازى المتوفى ٣٢٢ هـ يفاضل بين العربية والفارسية ، فيعقد فصلا فى كتابه " الزينة " تحقيق الهمدانى ط . القاهرة ١٩٥٧) ص ٦٠ لتفضيل العربية على الفارسية وغيرها من اللغات وفى ذلك يقول :

---

* نقل من المحاضرات التى ألقاها الدكتور عبد المجيد عابدين على طلاب دبلوم اللغة العبرية بمعهد اللغات الشرقية ـ جامعة الاسكندرية .

" ان لغة العرب هى اللغة التامة الحروف ، الكاملة الألفاظ لم ينقص منها شئ من الحروف فيشينها النقصان ، ولم يزد فيها شئ فيعيبها الزيادة . وسائر اللغات فيها زيادة حروف مولدة ، وينقص فيها حروف هى أصلية ، ونعتبر من ذلك باللغة الفارسية ، لأنا طبعنا عليها ونشأنا فيها " (ص ٦٤) . وكلامه هنا ليس مقارنة بالمعنى الاصطلاحى الذى عرفناه ، ولكنه مفاضلة . والمقارنة — كما نعلم — لاتكون الا بين لغتين أو أكثر داخل أسرة لغوية واحدة . أضف الى هذا أن المقارنة لاتفضل لغة على لغة وانما تسجل تسجيلا موضوعيا ما يتوصل اليه المقارنون من نتائج علمية .

وقد نجد عددا من علماء النصرانية أو اليهودية عاشوا قديما فى المجتمعات العربية الاسلامية فى المشرق والمغرب ، وعرفوا الى جانب العربية بعض اللغات السامية الأخرى . مثال ذلك من المشارقة أبو الفرج ابن العبرى المتوفى ٦٨٥هـ " كتب بالعربية والسريانية وألف فى النحو السريانى على غرار (المفصّل) للزمخشرى . لقد درس ابن العبرى النحو العربى وعرفه حق المعرفة منهجا ومادة ، وأقام على منواله كتابه المشهور فى النحو السريانى . والسريانية والعربية لغتان ساميتان تنتميان الى أسرة واحدة . وهناك — من المغاربة — عدد من النحاة اليهود عاشوا فى الأندلس ودرسوا فى إطار الثقافة الاسلامية النحو العربى ، وألفوا كتبا فى النحو العبرى على غرار ما وجدوه عند العرب من دراسات . والعربية والعبرية لغتان ساميتان(٢) ولم يكن ما كتبه ابن العبرى ولا يهود الاندلس

مما أفادوه من كتب العرب ، دراسة مقارنة . لقد استعار ابن العبرى طريقة الزمخشرى ، وعددا من المصطلحات العربية ونقلها الى النحو السريانى . وكذلك استعار يهود الاندلس كثيرا من المصطلحات والعبارات العربية ونقلوها الى النحو العبرى . ومثل هذا العمل أو ذاك قد يتناوله الباحث المؤرخ وهو يدرس تاريخ اللغة السريانية فى فترات تاريخية متعاقبة يرصد فيها ما طرأ عليها من تغييرات تأثرت فيها باللغة العربية . وكذلك الحال فى تاريخ اللغة العبرية وما طرأ عليها فى الأندلس من تغييرات تحت تأثير العربية هناك . فليس الموقف فى الحالتين موقف المقارن بين لغة وأخرى . فالباحث المقارن لا يجد أمامه وهو يقرأ النحو السريانى — لغتين ، بل يجد لغة واحدة . وعندما يقرأ كتاب النحو العبرى بالعبرية لا يجد أمامه لغتين بل نجد لغة واحدة . وفى مقدور الباحث أن يجد الدليل على أن هذه اللغة أو تلك ، قد انتقلت اليها عناصر غريبة عليها من لغة أخرى . فيستبعد هذه العناصر اذا ما أراد أن يقارن بينها وبين لغة سامية أخرى . وان دخول هذه العناصر فى لغة ما ويخرجها عن كونها لغة واحدة (٤) ، وهناك نظرية — أشار اليها فندريس (ص ٣٥٨) ترى أن كل اللغات تعتبر لغات مختلطة ولو الى حد ما ، فالانسان لا يتكلم مطلقا — فى الوقت الواحد الا لغة واحدة ، وعلى هذا تستقر وحدة اللغة — بكل بساطة — فى شعور المتكلم ، وتظل — مع اختلاطها وتأثرها بغيرها — لغة واحدة تمثل طرفا واحدا فى نظر الباحث المقارن بعد أن يستبعد ما عرفه بالدليل التاريخى واللغوى من عناصر [illegible]

على اللغة من لغة أخرى . اما الباحث المؤرخ " فمن شأنه أن يعطى صورة واضحة لتاريخ اللغة الواحدة والتغيرات التى تطرأ عليها فى مسيرتها التاريخية وفى مستويات استخدامها اللغوى فى البيئات المختلفة " (٥)

ـ وبعد ، فأين إذنْ بدايات المنهج اللغوى المقارن وبواكيره فى آثار علمائنا القدماء ؟ وعلى يد من ظهرت هذه البدايات ؟

لقد ظهرت هذه البدايات ــ فى صورة واضحة ــ عند علماء الاندلس ، فى العصور الوسطى . وفيمايلى نذكر عددا منهم على الترتيب التاريخى ــ وماورد عنهم من أقوال فى هذا الصدد :

أ ــ على بن أحمد بن حزم الأندلسى (٣٨٤ ــ ٤٥٦هـ = ٩٩٤ ــ ١٠٦٤ ميلادية) : أورد ابن حزم النص التالى فى كتابه " الاحكام فى اصول الأحكام (ط القاهرة ١ / ٣٠) ونقله د . محمود حجازى(٦)

" الذى وقفنا عليه وعلمناه يقينا أن السريانية والعبرانية والعربية التى هى لغة مضر وربيعة ، لالغة حمير ــ هى لغة واحدة تبدلت بتبدّل مساكن أهلها ، فحدث فيها جَرْس كالذى يحدث من الأندلسىّ اذا رام نغمة أهل القيروان ومن القيروانىّ اذا رام نغمة الأندلسى . ونحن نجد من سمع لغة أهل فحص البلّوط ، وهى على ليلة واحدة من قرطبة ، كان يقول انها لغة أخرى غير لغة أهل قرطبة . وهكذا فى كثير من البلاد ، فانه بمجاورة أهل البلدة بأمة أخرى تتبدّل لغتها تبدّلا لايخفى على من تأمله ... واذا تعرّب الجليقىّ أبدل من العين والحاء

هاء فيقول مهمدا اذا أراد أن يقول " محمدا " . ومثل هذا كثير . فمن تدبر العربية والعبرانية والسريانية أيقن أن اختلافها انما هو من نحو ماذكرنا من تبديل ألفاظ الناس على طول الأزمان واختلاف البلدان ومجاورة الأمم ، وأنها لغة واحدة في الأصل " .

وعلق د . حجازي بقوله (٧) : " عرف ابن حزم القرابة اللغوية بين العربية والعبرية والسريانية وشبه هذه القرابة بقرابة لهجات اللغة الواحدة " وعلق في مرجع آخر بقوله (٨) " وهذا النص مهم ، فابن حزم يفرق هنا بين العربية الجنوبية التي يطلق عليها في الكتب العربية القديمة " لغة حمير " وبين العربية الشمالية التي يسميها لغة مضر وربيعة . وهو يؤكد أن العربية والعبرية والسريانية من أصل واحد . وأن الهجرات أحدثت التغيير اللغوي ، وهذا ينطبق تمام الانطباق على مايقول به الباحثون المعاصرون في اللغات السامية " .

ب — علي بن اسماعيل بن سيده الأندلسي (معاصر لابن حزم) (٣٩٨ — ٤٥٨ هـ = ١٠٠٧ — ١٠٦٦ ميلادية) . يقول في المخصص " ١٣ / ١٦٧ ونقله ابن منظور في لسان العرب مادة (كنع) دون أن يذكر اسم ابن سيده : " وكنعان بن سام بن نوح ، واليه ينسب الكنعانيون ، وكانوا أمة يتكلمون بلغة تضارع العربية " وهذا ايضا يطابق ماقاله الباحثون المعاصرون عن اللغة الكنعانية بعد أن كشفوا النقاب عن نقوشها في العصور الحديثة .

جـ - أثير الدين ابن حيان (وكنيته أبو حيان) الأندلسي (٦٥٤ - ٦٤٥هـ = ١٢٥٦ - ١٢٣٤ ميلادية) :

(١) نص ورد في كتابه " منهج السالك على ألفية ابن مالك ص ٢٣٠ ونقله د . حجازى [٩] : قال أبو حيان : " وقد اطلعت على جملة من الألسن كلسان الترك ولسان الفرس ولسان الحبش وغيرهم وصنفت فيهما كتبا في لغتها ونحوها وتصريفها " والكتب التي ذكرها مفقودة كلها ، وبخاصة ماكتبه عن " لسان الحبش " لانه هو الوحيد من بين كتبه الثلاثه التي أشار اليها في هذا النص ، يحتمل أن يكون لغة من اللغات السامية التي أنتشر استعمالها في زمانه . ومن محاسن الصدف أن أبا حيان ترك لنا نصا مهما خاصا بلسان الحبشي أشار فيه الى أمثلة من كتابه قارن بينها وبين العربية . ورد هذا النص في كتاب ابن حيان " تفسير البحر المحيط " في الجزء الرابع صفحة ١٦٣ . وقد أرشدني الى هذا النص السيد / محمود فراج الطالب بالدراسات العليا . وفيما يلي هذا النص .

(٢) " والحبشة اذا نسبت ألحقت آخر ماتنسب اليه كافا مكسورة ؟ مشوبة بعدها ياء : يقولون في النسب الى قندى : قندكى والى ؟ شوا : شوكى . والى الفرس : الفرسكى . وربما أبدلت تاء مكسورة ، قالوا في النسب الى جهرى : جبرتى

وقد تكلَّمتُ على كيفية نسبة الحبش في كتابنا المترجم عن هذه اللغة المسمى ب " جلاء الغبش عن لسان الحبش " • وكثيرا ما تتوافق اللغتان : لغة العرب ولغة الحبش في ألفاظ وفي قواعد من التراكيب نحوية : كحروف المضارعة ، وتاء التأنيث وهمزة التعدية "

تعليق على النص :

من المحقق الان بعد أن قرأنا هذا النص أن أبا حيان تناول في كتابه عن لسان الحبش ، احدى اللغات السامية التي عرفت في زمانه بين بعض قبائل الحبشة • ولم تكن اللغة التي تحدث عنها أبوحيان هي اللغة السامية القديمة التي تسمى " لغة الجعز " والدليل على ذلك أن لغة الجعز لاتستخدم للنسب كافا كما يقول أبوحيان • أضف الى هذا أن لغة الجعز لم تكن في زمان ابي حيان لغة الحياة اليومية في بلاد الحبشة ، وكان زمان أبي حيان معاصرا لحكام الدولة السليمانية في الحبشة حيث كانت اللغة الرسمية فيها اللغة الأمهرية • ويبدو أن اللغة التي تحدث عنها أبوحيان كانت أقرب الى المناطق الساحلية التي قامت منها امارات عربية حول اقليم " الزَّيْلع " • ويبدو أن قول أبي حيان " وربما أبدلت تاء مكسورة قالوا في النسب الى جبري : جبرتي " اشارة الى أرض " جبرت " في اقليم الزيلع ، فإن صح هذا القول فان التاء في جبرت ليست تاء للنسب ولكنها صيغة جمع مفرد ها (جَبْر) بمعنى (عَبْد) وهي صيغة شائعة في عدد من اللغات السامية في الحبشة • وجَبَرْت بمعنى العباد ، كما يقولون في لفظ نجوس ومعناه الملك : نَجَسْت اي ملوك ، والجمع يقابل في العربية

ما جاء على وزن فَعَلة فى مثل بررة (جمع بَرّ) وفَجَرة (جمع فاجر) .. الخ فاذا نسبت الحبشة الى جَبَرْت قالوا جبرتى نسبة الى المكان ، مثل سحرتى الى نسبة الى مكان (سَحَرْت) أو قبيلة يمنية هاجرت الى بلاد الحبشة سكنت هناك . أما قول أبى حيان أن هذه اللغة تتوافق ولغة العرب فى ألفاظ وفى قواعد .. الخ فهذا صحيح ، وهو مطابق لكثير من اللغات السامية التى عرفت فى بلاد الحبشة ، ومن بينها اللغة القديمة (لغة الجعز) .

ويظهر من الترتيب التاريخى لعلماء الأندلس الثلاثة الذين تحدثنا عنهم ، أن ابن حزم الأندلسى هو الرائد العربى الأول الذى وضع عددا من المبادئ أو الأسس المطابقة لما عرفه الأوربيون بعد ذلك باسم علم اللغة المقارن ، وقد أضاءت مبادئ ابن حزم الطريق لمن جاء بعده من الأندلسيين وعلى رأسهم أبو حيان ، ثم من علماء المغرب وعلى رأسهم ابن خلدون (٧٣٢ ــ ٨٠٨ هـ = ١٣٣٢ ــ ١٤٠٦ ميلادية) . فقد أورد عبد الرحمن بن خلدون فى مقدمته (ط. المكتبة التجارية بالقاهرة ص ٥٥٧) ملاحظات فى الفرق بين العربية الفصحى (لغة مضر) ، واللهجات العربية المعروفة فى زمانه (ويسميها لغة العرب لهذا العهد) والعربية الجنوبية (ويسميها لغة حمير) مفسرا الفوارق بينها بالتغيرات الصوتية والصرفية والتركيبية التى طرأت عليها مع توالى الازمان . فعقد ابن خلدون لهذه الملاحظات الفصل الثامن والثلاثين بعنوان " فى أن لغة العرب لهذا العهد مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير " . وقد سبق للرائد الأول : ابن حزم الأندلسى أن عبر عن هذه الفكرة نفسها فيما أوردناه من أقواله .

واذا كانت مبادئ ابن حزم ذات أثر فيمن جاء وابعده ممن الأندلسيين ومغاربة الشمال الافريقي ، فقد يخطر لنا سؤال عن مدى تأثير هذه المبادئ في جيرانهم الأوربيين ، وللاجابة عن هذا السؤال لابد أن نعرف أولا أقدم محاولة قام بها الأوربيون في مجال المقارنات اللغوية متى حدثت ؟ وعلى يد من ؟

لقد ظهرت في القرن الرابع عشر الميلادى أقدم محاولات قام بها الأوربيون على يد الكاتب الايطالى : دانتى Dante (ولد ١٢٦٥ وتوفى ١٣٢١ ميلادية = ٦٦٤ ـ ٧٢١ للهجرة) أى بعد زمان ابن حزم الأندلسى بحوالى قرنين من الزمان . قام دانتى ببحث عدد من المفردات في اللغات الأسبانية والبروفنسالية والفرنسية والايطالية للتعرف الى علاقات القرابة بين هذه اللغات ، فأدرك أنها ترجع الى أصل واحد . " ولكن دانتى لم يجعل هذه اللغات متفرعة من اللاتينية ، لأنها ـ في رأيه لغة مصنوعة صنعها العلماء ليتعاملوا بها ، وأنها لم تكن لغة حية طبيعية في وقت من الأوقات . واذا كان البحث العلمى قد أثبت خطأ هذا الرأى ، وأوضح أن اللغات الرومانية المختلفة انما تطورت عن أصل واحد هو اللاتينية الشعبية أى اللاتينية في صورتها المنطوقة ، فان أهمية رأى دانتى ترجع الى تصنيفه لهذه اللغات في اطار واحد[١٠] وانظر أيضا ماذكره الدكتور حسن ظاظا[١١] ونحن نعلم أن دانتى كان على صلة بما كتبه بعض علماء الأندلس عن طريق ماترجم من مؤلفاتهم الى الأسبانية . ومن الثابت الآن أن دانتى اتخذ من قصة الاسراء والمعراج التى صنفها محيى الدين ابن عربى ، الصوفى الأندلسىّ ، مصدرا له في تأليف

فهل كانت محاولات دانستي في بحث صلات القرابـة بين اللغات التي عرفها في زمانه ، نتيجـة تأثير عربـي اندلسـي ؟ هـذا أمر محتمل ويظـل قائما الى أن يتمكـن الباحثـون من اثباتـه بأدلـة كافيـة •

تعليقـات الحواشـي

(١) اللغة العربية عبر القرون للدكتور / محمود فهمي حجازي ص ١٦ (ط ١٩٧٨ بالقاهـرة) •

(٢) مدخل الى علم اللغة للدكتور محمود فهمي حجازي ص ٢٧ (ط ١٩٧٨ القاهـرة) •

(٣) اللغة العربية عبر القرون للدكتور / محمود فهمي حجازي ص ١٦ (ط ١٩٧٨ القاهـرة) •

(٤) اللغة تأليف ج • فندريس — تعريب عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصـاص ص ٣٥٨ (القاهـرة ١٩٥٠)

(٥) مدخل الى علم اللغة للدكتور محمود فهمي حجازي ص ٢٦ (ط القاهـرة ١٩٧٨) •

(٦) علم اللغة العربية : مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية تأليف د • محمود حجازي ص ١٢٣ ، ١٢٤ (ط الكويت ١٩٧٣) •

(٧) المرجع السابق ص ١٢٣

(٨) اللغة العربية عبر القرون للدكتور / محمود فهمي حجازي (ط ١٩٧٨ القاهـرة)

(٩) علم اللغة العربية : مدخل تاريخى مقارن فى ضوء التراث واللغات السامية تأليف د • محمود حجازى (ط الكويت ١٩٧٣) ص ١٢٣

(١٠) المرجع السابق ص ١٢٥

(١١) اللسان والانسان (مدخل الى معرفة اللغة) للدكتور حسن ظاظا (ط مصر ١٩٧١)

الجزء الثالث

تأصيل اقدم مراكز العبادة عند الساميين منذ عصور ماقبل الميلاد

ج ـ تأصيل أقدم مراكز العبادة عند الساميين منذ عصور ماقبل الميلاد .

ـ ١ ـ

أقدم هذه المراكز كان يدور حول عبادة " عَشْتَرَ " . وقد ظهر هذا في نقوش بلاد العرب التي عكف الباحثون على دراستها واستخلصوا منها أسماء معبوداتهم التي بلغت أكثر من مائة اسم .[1] ومع مرور الزمن تعمقت الدراسات لمعرفة تلك الاسماء ، والتوصّل الى أقدم مركز قامت حوله عبادة "عَشْتَرَ" قد انتشرت في أنحاء العالم الساميّ ، في بلاد العرب شمالا وجنوبا ، وفي مصر عندما حمل الساميون هذه العبادة منذ الألف الخامس قبل الميلاد .

ولفظ ـ عَشْتَرَ ـ كما قلنا ـ ساميّ الاصل ، له مشتقات ، وقلّما طرأ عليها تغييرات صوتية طفيفة : ومنها اللغات السامية الشمالية : كالاكدية ـ والأوجاريت ـ وعبرية العهد القديم ـ والآرامية . وكذلك اللغات السامية الجنوبية : كالعربية الفصحى ـ والعربية الجنوبية القديمة ـ والحبشية القديمة ـ فهذه الأسرة اللغوية كلها ـ أعني الاسرة الساميّة ـ تحمل نظائر لكلمة " عَشْتَرَ" العربية ، وغالباً ماتكون صفات دالةً على الغِنَى والثراء وكثرة الخضرة ونشاط الحيوية . وعلى ضوء هذه المعاني ، تصاعد بعض معانيها حتى تمثلت في موصوفها "عَشْتَرَ" القدرة والقوة التي تَهب للمخلوقات الخصب والانتاج ، وتمنح الماء وتسقي النخيل ، وتجني الثمار والحصاد . وقد تكثر

(١) تاريخ العرب القديم : تأليف عدد من المستشرقين ـ وترجمة د . فؤاد حسانين
ص ١٨٤ .

هذه الصفات في المعبود " عَشْتَرَ " كما بدت واضحة في النقوش التي عثروا عليها في بلاد العرب.

— ٢ —

كان قدماء العرب والساميين " قد حملوا عبادة " عَشْتَرَ " في صورته الأصلية الى مصر في حدود الألف الخامس قبل الميلاد ، نحو ٤٤٠٠ ق.م، وكان يُعْبَد في مصر باسم (أسر) أو (عسر) أو عشر) ، وفي مصر أوزيريس Osiris • ومعظم علماء المصريات المحدثون مجمعون على أن أوزيريس أصل سامي •

" ثم عُبِدَ باعتباره الاهة باسم (أَسَّة) أو (هَسَّه) أو " عشه " وأصلها " عشتر " وهي تقابل ايزيس Isis والتاء الاخيرة للتأنيث، وقد سقطت الراء بعد ادماغها في التاء • ومثل هذا كثير في اللغة المصرية " •

" وكان كلاهما يُعْبَد أحياناً بوصفه الاهاً للخصب والماء " • راجع محمد محمود جمعة ص ١٣٠ — ١٣١ .

— ٣ —

انتشرت عبادة " عشتر " في مصر وفي بلاد العرب الجنوبية والشمالية ، ولابد أنها تركت آثارا في بلاد العرب الجنوبية ، والشمالية • ولابد أن نلتمس لها مخلفات أو بقايا مازالت في اللغة العربية الفصحى ، في بعض أعلام القبائل اليمانية والأشخاص القدامى اذ نجد الأعلام المركبة التي

شملت بعضهن اسمها "معبود بعينه" أو مقاطع مقدسة منها ، فقد قرأنـــا
في تاريـخ العرب القديم " شواهـد من الأعلام المركّبة القديمة التي يضاف
اليها (عَشْتَر) ، ومن ذلك ، اوسى عَشْتْ ـ اي عطية عَشْتَر/ ومن ذلك:
لُحَىْ ـ عَشْتْ ـ اى لحياة عشتر / ،

وأورد " تاريـخ العرب القديم " الذى ترجمه د ، فؤاد حسانين شواهـد
صـ ٢٢٠ ـ ٢٢١ منها شاهد من أسماء ملوك مَعِين ، وسبأ ومنهم من عاش في
عام ٩٥٠ قبل الميلاد واسمه " هـوف عَشْت " وآخر سُمّى " هوب عَشْتْ " ،
وكلاهما وصف للمسمّى ومعناه فيما أظن أن المسمى يحيا بقدرة عشتر ،
أو بقوته ومعونته ،

واذا قلنا ان الأعلام التى سجلتها النقوش القديمة وكُشِف النقابُ
عنها منذ مئات من السنين ، قد استطاع الباحثون الآن أن يسجلوا شيئا
من الأسماء المركّبة التى دُوِّنت فى عصور ما قبل الميلاد ، فما عسى أن يقال
لقبائل كثيرة يمانية عرف اصحابُهم أنسابهم وتوارثوا ذلك نسَّابتهم على مدى
مئات من السنين ، وهم يعيشون وما زالوا فى بلادهم أو تركوا اليمن الى
مهاجرهم ، أو نزحوا الى شمال بلاد العرب أو الى أقطار اسلامية استقروا
فيها ، ومع هذا كله عندما تحاول دراسة أنساب هذه القبائل بحثا عن
أعلام مركّبة ظهر فيها مقطع من اسم عشتر أو غيره من المعبودات التى
اعتنقها اجدادُهم قبل ظهور الاسلام فقلما وجدنا مقاطع من اسم عشتر
أو غيره من المقدسات التى نتوقع وجودها عند جدودهم الأقدمين ،

ولكنى الاحظ فى أعلام القبائل اليمانية أو التى اتصلت باليمن ،
تركيبات يمكن أن نحللها الى مقاطع من اسم عثتر • وفيما يلى تأصيل بضعة
نماذج من هذه الأعلام : مرتبة على حروف المعجم

ق ـ قُضَاعة أبو قبيلة • وقيل : هو أبو حىّ من اليمن : قُضَاعة بن مالك
بن حِمْيَر بن سبأ • وهو القول الأصحّ وبخاصة اذا رجعنا فى تقديرنا
أن اسم القبيلة من الأعلام المركبة (قُضَى + عَثْتْ) تألفت أصلاً من
جملة فعلية • ولكنها مع مرور الأحقاب تحوّل العلَم المركّب الى صيغة
مفردة مع تعديل بنائها الى (قُضَاعة)

ل ـ لحيعة ينوف بن الحارث(ص ٢٤٠ ، ٣٥٠) (راجع المشتبه للهمدانى
تحقيق أو سكار لوفجرن) (جامعة أوبسالا ١٩٥٣) • وسبق أن أشرنا
الى أن لحيعة) علم مركب أصلا (لحياة عثت) •

لَخْيعة : هى فى نظرى (عَلَم مركّب) يتألف من فعل أمرٍ ونداءٍ
لعشتر = لخّنى عثت خُفِّفَتْ الخاء المشددة فصارت(لَخْنى عثت) •
والمادة اللغوية (لَخَّ) الخبز تخبرّه واستقصاه ويقال : اللَّخ العشبُ:
التف ، لَخّ الوادى ضاق والتفّ بالشجره فالعَلَم مركّب من دعاء الى عشتر
لاخصاب زرعه •

لهائع : لهيعة بن عبد شمس بن وائل (ص ٣٤٥) (المشتبه
للهمدانى تحقيق اوسكار لوفجرن (جامعة أوبسالا ١٩٥٣) •

لهيعة بن مرثد الخير (ص ٣٤٦) (المشتبه للهمدانى جامعة أوبسالا ١٩٥٣)،

لهيعة بن الحارث ص ٣٤٧ (المرجع السابق اوبسالا ١٩٥٣) •

لهيعة ينعم بن يعفر ينكف ص ٣٤٨ (المرجع السابق ـ جامعة أوبسالا ١٩٥٣) •

لهيعة مثوب بن ذى رعين ص ٣٤٩ (المرجع السابق ـ جامعة اوبسالا ١٩٥٢) واسم (لهيعة) الوارد فى كل ماسبق ، هو فى نظرى ، عَلَم مركب، يتألف من (الاهى عَثْتْ) .

ـ عبد الله بن لهيعة بن عُقْبة الحضرمى (من كتاب ميزان الاعتدال فى نقد الرجال تحقيق على محمد البجاوى (القسم الثانى ص ٤٧٥ ـ ٤٨٣ (ولد فى مصر ٩٦هـ ومات ١٧٤هـ) كان فقيها محدثا ، أحد تلامذة يزيد بن أبى حبيب المصرى . واسم أبيه لهيعة ، يدل على حضرميته . والاسم (لهيعة) هو فى نظرى علم مركب أيضا وأصله

(= لهيعة = الاهى عَثْتْ)

و ـ وَليعة بن شرحبيل بن معاوية اسم قبيلة يمنية ارتدت عن الاسلام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم (معجم البلدان لياقوت ٢ ـ ٢٧٠ (مادة حضرموت) وهو فى نظرى عَلَمٌ مركّب ، وأصله :

(= وليعة = ولىّ عثت)

ـ ٤ ـ

تطورات متأخرة فى عبادة عثتر (نقلا عن محمد محمود جمعه فى كتابه (النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية (ط القاهرة ١٩٤٩) .

أ ـ كان عثتر يُعْبد فى الأصل لابوصفه " الـه الزهرة " بل بوصفه الاهـا أرضيا : الـه سقى النخل ، وجَنْى الثمار ، الـه الخصب ، والتسميات وهذا ظاهر مما ورد فى النقوش المعينية من ألقاب ونعوت كان يوصف بها (انظر جمعه ص ١٢٥)

ب ـ كان عشتر في بداية الأمر معبودا في صيغة المذكر في جزيرة العرب وفي بابل ولكن صار مع مرور الزمن يُعبد في صورة الاهة (إلاهة) إلـه . ولو أن اللفظ ظل مذكرا لاينتهي بعلامة التأنيث الا في كنعان . وقد انتشرت عبادتها بهذا الوصف المؤنث في جميع أنحاء العالم السامي .. (انظر جمعة ص١٢٣)

جـ ـ لم يَعُدْ عشتر منفردا الاهاً أرضيا ، بل كان كلما انتشرت عبادته في الشمال الشرقي (بابل وأشور) ، وفي الشمال الغربي (في كنعان) يزداد ارتباطه بمعبودات أخرى في الشمال ، ففي شمال الجزيرة العربية دخلت عبادة الكواكب الى بابل . وبعد أن شرع المعينيون يربطون آلهتهم الأرضية بالأجرام السماوية ، وبعد أن صار (وَدّ) يمثّل الاله (سِنْ) اله القمر (أنظر جمعه ص١٢٥) . وكان هذا التطور في عبادة عشتر ، يمثل تغييراً أساسياً مما جعل عشتر فردا بين عائلة فلكية يمثل طفلاً هو الزُّهَرَة الناتجة عن زواج الشمس والقمر . ومن الواضح أن فكرة ارتباط عشتر بالأجرام الفلكية وتمثيله كوكب الزهرة " ربما كانت فكرة متأخرة نوعا ما جاءت تحت تأثير البابليين (جمعه ص١٢٦)

د ـ وفكرة ارتباط عشتر بالزهرة كما يرى Sayce (سايس) دخلت الى جزيرة العرب عن طريق (أور) ثم انتقلت الى كنعان بعد ذلك بزمن طويل حيث أصبح (بَعْل) اله الكنعانيين القديم يمثل الشمس ، وأصبح عشتر مؤنثا (عشتروت) تمثل القمر (جمعة ص١٢٦ ـ ١٢٧)

كذلك أدّى انتشار عبادة عشتر في بابل وفي كنعان الى اندماج ٧٣ عشتر ببعض المعبودات الأخرى

فقد انتشر اسم (اشتار) (وهو عشتر) في بابل حتى آخر أيام البابليين والأشوريين • وقد عُبدت كذلك باعتبارها الاهاً للجَني والحصاد في زمن جوديا (ملك سومر) أى في أواخر الألف الثالث قبل الميلاد • وكانت عند الكنعانيين عشتروت الاهة الكوكب الليلي " الزهرة " • ويقول آلبريت Albright أنها لابد أنها كانت في الأصل هي الاله عشتر Ashter آله كوكب الصباح المعروف لدينا ••• (جمعه ص ١٣١) • وقد ربط الكنعانيون عبادة عشتره وعشيرة ، وعناة بعبادة الآله (بَعْل) وصاروا يعدونه زوجاً لتلك الالاهات الثلاث• وكان كذلك آله الماء والخصب عندهم (جمعه ص ١٣٣) ولما قرن الكنعانيون عبادتها بعبادة الآله : الاله بَعْل ، أخذ بعل وظيفتها ، وصار هو آله الخصب وماء السقي بأنواعه كماء المطر والآبار والعيون • وقد وجدنا صدى ذلك عند العبرانيين • فكانت الأرض التي تسقى بماء الطبيعة كماء المُزن والآبار تدعى في المشنة ، والتلمود باسم " بيت بعل " أو " حقل بيت بعل " (جمعه ص ١٣٤) نقلا عن سمث في كتابه ديانة الساميين ص ٩٧ •

و — وقد وقف محمد محمود جمعه ص ١٣٤ — ١٣٥ عند ما قاله فقهاء المسلمين وغيرهم عن " بعل السماء وماكان له من نصيب في نتاج الأرض التي يسقيها بمائه " قال جمعه: "وقد فرق العبرانيون في خراجهم بين زرع هذه الأرض وبين ما يُجْلَب اليه الماء بالري الصناعي •

وقد تحدرت هذه الفكرة الى قدماء العرب وعلى ضوئها نستطيع أن نفسر بعض مظاهر نظم الخراج التى وَجَدَت طريقها الى الاسلام. فقد ورد فى كتب الفقه الاسلامى أن ما يُجْبَى عليه العُشْر هو كل ماسقى بماء السماء ، والآبار والبعل " وورد فى البخارى (جزء ٢ ص ٦٤) أن كل ماسقى بماء السماء والآبار فهو " عشّرى " — وبمقارنة اللفظين ترى العلاقة واضحة بين بعل وعشّر أو عشتر — وهى علاقة قديمة جدا ترجع الى عصر الكنعانيين كما ذكرنا آنفا ".

" وقد قُرِنَت عشتر بعبادة النخل والأشجار عند الساميين منذ قديم الزمان حتى انهم كانوا يطلقون اسمها على كل صنم مصنوع من خشب، كما ورد مراراً فى التوراة. وكانت تمثّل عبادةً بجذع شجرة فصلت عنه الأغصان (راجع جمعه ص ١٣٥ عند حديثه عن الأشجار وجذوعها ، وكيف عُرِفَتْ عشتر فى شمال الجزيره بأسماء أخرى منها اللات والعزى).

اذا عدنا الى فكرة ارتباط " عشتر " مع العائلة الفلكية المقدسة ومنحه لقب " كوكب الزهرة " وأخذنا الرأى السائد بين أكثر الباحثين ، وهو القائل بأن هذه الفكرة دخيلة على عبادة " عشتر " بل هى دخيلة على عرب الجنوبيين بصورة عامة — والفكرة — أعنى فكرة ارتباط عبادة عشتر بالعائلة المقدسة من الأجرام الفلكية — متأخرة نوعاً ما ، جاءت تحت تأثير البابليين . ومن العلماء من رجح أن هذه الفكرة الدخيلة انتقلت الى جزيرة العرب عن طريق (أور) ومنهم من أعلن أن هذه الفكرة كانت — منذ أقدم عصور الميلاد — هى السائدة عند السومريين الذين أقاموا فى منطقة ما بين النهرين دجلة والفرات. ومنهم انتقلت الفكرة الى جيرانهم الساميين كالبابليين والأشوريين شي

جاءت الى العرب الجنوبيين.والسوميريون ليسوا من الساميين • ويعد السوميريون أقدم الشعوب التى استقرت وكانت لها حضارة فى منطقة مابين النهرين " وضعت لحياتها سجلاً مكتوبا • فهم الذين اخترعوا حروف الكتابة المسمارية • ولغتهم ليست من اللغات السامية •••

ولا نعرف من أين جاء السوميريون الى منطقة مابين النهرين " دجلة والفرات " • وكل ماعرفه المؤرخون أنهم جاءوا مزارعين وملاحين • واستجلبوا معهم أدوات من حجارة السبج لقطع الجلد واللحم • وطحن الحبوب ••• الخ وقد نقل السوميريون تفاصيل حضارتهم الى جيرانهم من الشعوب الناطقين باللغات السامية فى منطقة مابين النهرين • كالبابليين والأشوريين " (راجع كتاب " القافلة قصة الشرق الأوسط لمؤلفه " كارلتون كون " وترجمه برهان دجانى وراجعه احسان عباس ص ٤٨ ـ ٥٧) •

الجزء الرابع

تأصيل (الكاف) الأداة النحوية ووظائفها في اللغات السامية

مراجع البحث :

١ـ آثار حضارة الفراعنة في حياتنا الحالية بقلم محرم كمال (نشرة دار الهلال ١٩٥٦) .
٢ـ البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي ج ٣ .
٣ـ التطور النحوي للأستاذ برجشتراسر (ط ١٩٢٩) .
٤ـ ديانة قدماء المصريين ـ استيندورف ترجمة سليم حسن (ط ١٩٢٣) .
٥ـ ديانة مصر القديمة : نشأتها وتطورها ونهايتها في أربعة آلاف سنة ـ لأدولف ارمان وترجمة عبد المنعم أبوبكر ومحمد أنور شكري (ط ـ الحلبي مصر) .
٦ـ شرح المفصل لابن يعيش .
٧ـ فجر الضمير ـ لجيمس هنري برستد ترجمه د . سليم حسن (ط مصر ١٩٥٦) .
٨ـ لسان العرب لابن منظور .
٩ـ اللغة ـ ج . فندريس ترجمه عبد الحميد الدواخلي ، محمد القصاص (ط ١٩٥٠) .
١٠ـ محاضرات في علم اللغة الحديث ـ د . عبد المجيد عابدين (ط ١٩٨٦) .
١١ـ المعجم الصغير لمفردات اللغة المصرية القديمة ـ وضع د . أحمد بدوي ، د . هرمن كيس (ط ١٩٥٨) .

12- Babylonians & assyrians by A.H.Sayce (London 1900).
13- Babylonische-assyrische by Glossar by carl Bezold(1926).
14- Hebrew and English Lexicon of the Old. Testament, by F.Brown, S.R.Driver, C.A. Briggs (Oxford 1952).
15- Encycl. Biblica (EBi): 4 vol. (London 1899-).

16- Encycl.of Religion & Ethics, Vols 1-XIII (1908).

17- Grammaire Éthiopienne, par Marius Chaine
(Beyrouth, Imprimerie Catholique 1938).

18- Ethiopic grammar by Samuel A.B. Mercer(Oxford 1920).

في محاضراتي التي سبق طبعها (المرجع رقم ١ ص ١٨٢) أشرت الى الصيغ غير الصرفية وتطور وظائفها على مدى استخدامها اللغوى . وأوضحت أن صيغ الضمائر ، والمبهمات ، وحروف المعاني هي في الحقيقة خليط تراكم على مر العصور ، ومع توالى الأزمنة . وليس من اليسير أن نصنف تلك الصيغ تصنيفا جامعا مانعا . وحسبنا أن نقدّم للقارئ نوعين من هذا الخليط المتراكم : أحدهما : نوع من حروف المعاني مُستحدَث أنشأته العربية الفصحى ، ولا تكاد نجد لها نظائر في اللغات السامية الأخرى ، مثالها عن — عند — حتّى — رب — أجَل — جَيْر — عَدا — حاشا — غير — خلا — بين — فوق — سوف .. الخ والنوع الثاني : يمكن استخلاصه من جملة الخليط المتراكم ، وهو صيغ غير صرفية ، قديمة عريقة في القدم ورثته العربية مع شقيقاتها . وقد نجد منها ماهو ساميّ الأصل . ومنها مايرجع الى كلمات غير ساميّة الأصل ، استعارتها اللغات السامية الأخرى ولم تلبث أن انحدرت دلالة الكلمة ، ونسيت وظيفتها العليا ، وصارت تؤدى مجرد أداة أو ضمير ، الى يومنا هذا . وسُقْتُ لهذا النوع مثالا : قلتُ(مثل " الكاف " الدالة على الخطاب والتشبيه والتوكيد . فهي الـ (كا) المستعارة فيما يبدو من لفظ مصرى قديم) (المرجع رقم ١ ص ١٨٢) .

هذا مثال من الأدوات النحوية التي وجدناها من النوع الثاني : أعنى الكاف: كاف الخطاب، وكاف التشبيه ، وكاف التوكيد وماإليها . وهي أداة تتمثل في معظم الصيغ غير الصرفية بأنواعها : في الضمير الشخصي ، للخطاب ، حيث ترد في موضع النصب ، وفي موضع الجرّ (رآكَ ، كتابكَ) . وتتمثل في المبهمات كاسم الاشارة ، حيث تأتى لاحقة له ، تفيد الخطاب ، ولا موضع لها من الاعراب (ذلك ، تلك) ، وأسماء الأفعال (دُونك ، رُوَيْدك) . والضمير

[illegible] . وتمثل حرفا جارا للتشبيه نحو (أنت كالليث) . وللتعليل نحو : (اذكروا الله كما هداكم) أى لأنه هداكم : والتعليل هنا — فيما يبدو — مأخوذ من مفهوم التشبيه ، أى مثلما هداكم . ويأتى الكاف للتوكيد حرفا جارا نحو قوله تعالى : (ليس كمثله شئ) . وهى الزائدة للتوكيد .

فالكاف فى النظام النحوى تؤدّى أكثر من وظيفة ، وتفيد أكثر من معنى . أضف الى هذا أنها تأتى مركبة فى صيغ كثيرة : مثل : كم ، وكيف ، وكأن ولكن ، وكأين ، وكما ، وكى ، وصيغ من الأفعال مثل كان ومشتقاتها .. الخ .

ولاتنفرد العربية الفصحى بذلك دون أخواتها الساميّات ، بل نجدها — وبخاصة فى عبرية العهد القديم — على المستوى ذاته من حيث الوظائف التى تقوم بها تلك الأداة النحوية ، وتنوع المعانى التى مارستها .

١) تدلنا القرائن والشواهد على أن المقطع (كا) (ka) كان فى اللغة المصرية القديمة صيغة اسمية عالية بمعنى الذات او القرين (المرجع رقم ٧ ص ٦٧) . وشاعت كلمة (كا) بمعنى الذات أو القرين وانتشرت فى انحاء مصر القديمة . وظهرت فى كتاباتهم ورسومهم وآثارهم منذ أكثر من خمسة آلاف سنة . " كان فى اعتقاد المصريين القدماء ان لكل انسان قرينا .

(القرين كائن روحانى يصاحب الجسد ويلازمه : ويظل باقيا خالدا بعد مفارقته الجسد . وللقرين قدرة على التجسّد ، فتكون له صورة مجسمة تطابق صورة صاحب الجسد وتماثله فى أحواله وحركاته وسكناته) .

" ومن معتقداتهم أن الموتى يقيمون فى مقابرهم أوفى عالم خاصّ بهم . وكان موتهم يُفسَّر بأن قوة خاصة كانت تلازمهم فى حياتهم ، وتسمى " الكا "

قد هجرتهم . ويستقبل كل انسان هذه (الكا) عند مولده . وذلك بأمر من الاله رَعْ " .

" ومادامت معه هذه " الكا " ، ومادام هو (ربّ الكا) وأنه " يغدو معها " فهو حَيٌّ يرزق . ولئن كان أحد لايستطيع رؤية هذه " الكا " فالمعتقد أنها تشبه صاحبها تماما " (المرجع رقم ٥ ص ٢٣٥ - ٢٣٦)

" وكان يُنعت القبر بأنه " دار الكا " . كما كانت تقدم الأطعمة وفقا لصيغة القربان الشائعة الى " كا " الميت . وقد طفقت تلك الفكرة الغامضة عن (الكا) تتطور فيمابعد ، فكانت الكا تعتبر تارة كأنها كائن الهي ، كمايدل على ذلك رسم لفظها في اللغة المصرية القديمة . وتارة كأنها الملاك الحارس ، الذي يهتم بالانسان ، ويعنى بأمره . وتارة كانت (الكا) هي التي تَلِدُ الابن . وفي أحيان أخرى كانت " الكاوات الحية " تعبيرا رشيقا يوصف به الناس . وتارة أخرى كانت " الكاوات " تعبر عن قوى الحياة ، أى عن الأطعمة . أو كانت سائر النعم التي يتصرف فيها آله الشمس . وفضلا عن ذلك ، فقد كان لفظ (الكا) يُحْشَر بكثرة في مختلف التراكيب والجمل " (المرجع رقم ٥ ص ٢٣٦ - ٢٣٧)

) تحليل قصة الـ (كا) الى عناصرها الأربعة :

تتسم الـ(كا) أو القرين بأربع سمات رئيسية :

(الأولى) أن الـ(كا) هو كائن آخر يلازم الجسد وصاحبه .

(الثانية) أن الـ(كا) أو القرين قد يتجلى في صورة جسدية تشبه صاحب الجسد تماما ، في أحواله وهيأته .

(الثالثة) أن للقرين دورا آخر في الحياة الدنيا . فهو يؤكد حيـ[illegible]

صاحبة وينمى وجودها ويمنحه الحيوية الدافقة ، ويغذى جسده حتى ينمو ويشتد ، كما يمنحه أيضا الحياة فى الآخرة ، ولذا اقترن لفظ الـ(كا) فى أذهان المصريين القدماء بالقوة والبركة والنماء .

(الرابعة) أن فى الـ (كا) أو القرين معنى الخلود ، فهو لا يفنى بفناء صاحب الجسد ، وانما يظل حيا من بعده ، فوجوده يحقق وجود صاحبه من بعده ، ويُثبِّت بقاءَه فى الحياة الأخرى ، ويؤكد استمراريته بعد فراق الجسد — فهو يمثل عنصر الثبات والاستمرار والأصالة .

---

٣) الاعتقاد فى " القرين " أو الـ(كا) فى مصر القديمة ومدى انتشاره فى مناطق أخرى . شاع هذا الاعتقاد بين عوامّ مصر القديمة ، وخواصّها . ثم أكد A.H.Sayce أن السوميريين فى منطقة مابين النهرين ، كانوا يعتقدون فى القرين ويسمونه zi (زى) . يقول (سايس): " ان الاعتقاد فى (zi) أى القرين عند السوميريين ، هو أمر مطابق تماما لفكرة الـ(كا) التى اعتقد ها قدماء المصريين . ومن الملاحظ أن المعلومات التى عرفها المصريون عن الـ(كا) تتفق تماما مع الـ(zi) التى اعتقد ها السومريون . فكلا الشعبين ينتمى الى الفكرة الدينية ذاتها " (المرجع رقم 12 ص ٢٣٣) . واذا نظرنا فى معجم " لسان العرب " فى مادة (ق ر ن) ، ادركنا أن آثارا من بقايا هذه المعتقدات مازالت فى بعض مفردات " القرين " (المرجع رقم 4 مادة ق ر ن) . ويقول محرم كمال : " ان العوام الآن يعتقدون أن لكل شخص أختاً تحت الأرض أو قرينة تولد معه : فهذا الاعتقاد ورثناه عن الفراعنة الذين كانوا يعتقدون أن كل شخص له روح أو قرين أطلقوا عليها " كا " . وكانت هذه الـ(كا) تعيش معه . فاذا مات تبعته الى القبر " (المرجع رقم ١ ص ١٠)

٤) الفن المصرى القديم أحاط الـ(كـا) بعناية فائقة .

أ ـ فقد اتجه الفن المصرى القديم الى تصوير رسوم الـ(كـا) وتماثيله ونحتها وابراز صورها بمختلف معالمها الدقيقة .

ب ـ " وفضلا عن ذلك فقد كان لفظ الـ(كـا) يحشر بكثرة فى مختلف التراكيب والجمل " (المرجع رقم ٥ صـ ٢٣٦) .

جـ ـ " أن قدماء المصريين قد استخدموا صيغة قديمة من صيغ ضمير المفرد المخاطب عندهم فى صورة " كـو " بمعنى الشخص الآخر ، كما اتخذوا لفظ (كـى) بمعنى الشىء الآخر صفة قابلة للتصريف الى مذكر ومؤنث والى مفرد وجمع (المرجع رقم ١ صـ ٢٦١) .

د ـ واذا عرفنا أن صيغة الـ(كـا) قد استخدمها قدماء المصريين صيغة اسمية بمعنى الذات أو النفس واتخذوا منها صفة قابلة للتصريف ، ثم ضمير للمفرد المخاطب ، ادركنا أن صيغ الـ (كا) قد تشعبت على يد قدماء المصريين ولقيت من لغتهم عناية بالغة فتنوعت وظائف الكلمة من صيغة اسمية الى صفة الى اداة نحوية تلك الأداة التى ظلت مع الآف السنين تؤدى وظيفتها فى معظم اللغات السامية ، وهى تحمل معها ذكريات من وظيفتها الأولى كما سنرى فيما يلى .

---

٥) هذه قصة الـ (كـا) التى حملت معها منذ البداية ذكريات من المعانى الأربعة التى ارتبطت بوظيفتها الأولى حين بدأت صيغة اسمية تامة ، ثم انحدرت الى ذكريات باهتة ، فى صفات أربع ، قد توارثتها اللغات السامية ، لغة بابل وأشور ، حيث عاشت وازدهرت فى منطقة مابين النهرين ، وتعد نقوشها من أقدم النقوش السامية التى وصلت الينا ،

وفي هذه اللغة ، اُسْتُخدمت الكاف كأداة للخطاب والتشبيه ، واستعملت في معنى التشبيه لفظ (كسى) بمعنى المثل أو التشبيه ، وكثر دوران الكاف في صيغ مركبة متنوعة (المرجع رقم ١٤ ص ١٣٢ ـ ١٣٣)

---

٦) واستعملتْ العربية الفصحى : الكاف للخطاب في ضمير الجر والنصب ، نحو : إليكَ ، وكتابكِ ، وأكرمتُكَ ، وحيّاكِ ـ وأضافت بعض اللهجات العربية القديمة استعمال ضمير الرفع بدلا من التاء التي استعملتها الفصحى في الفعل الماضي . وبهذه اللهجة قال الشاعر :

يا ابن الزبير طالما عَصَيْكَا وطالما عَنَّيْكَنا اليكا

والشخص المخاطب هو ـ بموتبته ـ الشخص الآخر الذي يلي المتكلم في الحضور والمشاهدة (المرجع رقم ٦ ـ ٣ / ٨٤)

واللغة الحبشية القديمة (أعني الجعز) تتفق تماما وتلك اللهجة العربية القديمة التي استخدمها هذا الشاعر .

فاللغة الحبشية القديمة تستخدم مع الفعل الماضي الحالات الآتية :

١) كاف الخطاب للمذكر المفرد ከ (ك)

٢) كاف الخطاب للمذكر الجمع ክሙ (كمُو)

٣) كاف الخطاب للمؤنث المفرد ኪ (كِ)

٤) كاف الخطاب للمؤنث الجمع ክን (كِنْ)

٥) كاف المتكلم المفرد ኩ (كُو) (ضمير الرفع)

(المرجع رقم ١٦ ص ٣٠ ـ ٣١ ، رقم 18 ص ٢٩ ـ ٣١)

وظائف الكاف — أى الاداة النحوية — وتبدأ بخدمة الشخص الآخر — أى المخاطب — فهى كاف الخطاب فيما عدا حالة المتكلم المفرد وقد وردت كما أسلفت — فى بعض اللغات واللهجات الساميّة — وبخاصة فى اللغات الحبشية الساميّة الجنوبية .

ويلاحظ — ثانيا — أن الكاف تؤدى وظيفة التشبيه ، وكأنها تمد ظلالا من المعنى القديم للقرين الذى يزامل صاحبه ويلازمه .

ونقف — ثالثا — للنظر فى قوله تعالى : " ليس كمثله شىء " (سورة الشورى آية ١١) ، فالكاف هنا يؤكد المعنى ، ويتخذ ، رمزا لتعزيز صفة الشىء ، وتقوية وجوده ، والاشارة الى ملازمة المثل كما لازم القرين نظيره الذى يصاحبه ويثبّت دعامته .

ومن الممكن أن نجد فى مطولات كتب النحو العربى ، شواهد كثيرة للكاف الزائدة التى تأتى للتوكيد ، ويكثر تداولها فى صيغ شتى ، اقترنت بها الكاف ، فأضفت عليها هذا المعنى ، مثل : ذاك وكذلك ، والكافات فيهما زائدة ، وقد تكون الكاف الأولى فى (كذلك) للتشبيه ، والأخرى للخطاب كما يقول بعض النحويين ، ولكن التأكد هنا ظاهر لايخفى ، ويتضح هذا حين تسمع من صاحبك كلاما مقنعا معجبا فتقول له : هو كذلك أو هو ذاك .

وكما ترد " كأن " للتشبيه ، تستخدم أيضا لافادة القطع واليقين . وبهذا فسّر بعضهم الآية الكريمة : قال تعالى : " وَيْكَأَنَّ الله يبسطُ الرزقَ لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا أَنْ مَنَّ الله علينا لخسف بنا وَيْكَأَنَّه لا يفلح الكافرون " (سورة القصص آية ٨٢) (المرجع ٦ — ٤/٧٦) .

واذا نظرنا الى عبرية العهد القديم ، وجدنا من استعمالات (الكاف)

[illegible] * Keph Veritatis " وتأتى لتثبيت الوصف الذى تقترن به ، بالاضافة الى معنى التشبيه •

٨) مقارنة بين كان (الفعل الناقص) ، כֵּן (ظرفاً وصفةً) المقارنة هنا بين " كان " فى العربية ، و" כֵּן " فى العبرية • ونلاحظ من ناحية الشكل ـ أن صيغة " כֵּן " (كين) فى عبرية العهد القديم وردت مشكولة الكاف بحركة ممالة نحو الكسر امالة طويلة ، تسمى حركتها فى العبرية " صيرى " • أما الكاف فى الصيغة العربية (كَانَ) فهى مشكولة بفتحة طويلة • أما النون فى الصيغة العربية فقد بنيت على الفتح لتكون فعلاً ناقصاً ثم فعلاً تامّاً بعد أن استكمل نموّه مع الزمن أما الصيغة العبرية " כֵּן " فالنون فيها ساكن ، وظلّت ظرفاً أو صفة فى العبرية بحسب المعنى السياقى فى نصوص العهد القديم • فقد تأتى بمعنى الظرفية ، وقد يَردُ بمعنى الحقّ أو الأمين أو الثابت أو القويم • وقد تأتى فى مواضع أخرى بمعنى الأساس أو القاعدة أو الدعامة : فالمعانى فى جملتها ثلاثة : ظَرف وصفة واسم (المرجع رقم ٤٩ ، ص ٤٦٥ ـ ٤٨٧) وفى اللفظ " כֵּן " ـ بمعنَييْه الاسمىّ والوصفىّ ـ ما يحقق الوظيفة الرابعة من وظائف الـ (كـا) التى حَملتْ معها ـ منذ البداية ذكريات من عناصرها التى ارتبطت بوظيفتها الأولى : ألا وهى : معنى الثبات والاستمرار ، والأصالة •

وبقى الآن أن نتساءل : هل يمكن المقابلة بين الصيغتين العربية والعبرية : كان ، " כֵּן " من الناحيتين الشكلية والدلالية ؟ تحدّث " برجشتراسر " عن الحروف الصائتة ـ أى الحركات ـ فقال : " هى فى اللغة العربية ثلاثة : الفتحة والكسرة والضمّة ، والحركات الممدودة الموجودة فى اللغة العربية توافق الحركات الممدودة الموجودة فى اللغة الساميّة الأم • والفرق بينهما فى اللغة طفيف • غير أنه يحتمل أن اللغة الأم كان لها حركة ممدودة رابعة : هى ē • وهذه الحركة صارت (a) فى العربية

الفصحى : مثال ذلك: ان كلمة (جار) يطابقها في العبرية " גֵּר "
وكلمة (نار) يطابقها " נֵר " في العبرية ، وان خالفتها في المعنى ،
فان معنى " נֵר " في العبرية: النوُّر • وحرف الجر (عَلَى) هي في
العبرية " עֲלֵי " (المرجع رقم ٣ ص ٣٤) •

وقياسا على هذه الشواهد التي أوردها برجشتراسر ، نرى أن صيغة " כּוּן "
وهي من الصيغ العريقة في القدم ، وبناؤها ثنائي كالشواهد السابقة —
قد ورثتها العبرية من أحقاب طوال ، ولم يُجْرِ العبرانيون عليها القياس•
ومن الراجح أن يكون العرب قد أجروا على صيغتهم (كان) القياس، فظهر
الخلاف بينها وبين الصيغة العبرية " כּוּן " وهو خلاف شكلي طفيف•
ومن الملاحظ أن العربية تكاد تكون هي وحدها التي استعملت (كان)
فعلا يدل على الوجود • واللغات السامية التي نعرفها ، تستخدم أفعالا
أخرى ، فالعبرية تستخدم " הָיָה הָוָה " بمعنى كان ووقع وحدث•
وكذلك اللغة الحبشية القديمة وغيرها لاتعرف الفعل (كان) أما من الناحية
الدلالية فالى أي مدى يمكن أن نقابل بين الصيغتين وأن نقارن بينهما:
قال ابن يعيش في معرض حديثه عن الأفعال الناقصة: " فأما كونها أفعالا
فلتصرفها بالماضي والمضارع والأمر والنهي والفاعل ؛ نحو قولك: كان — يكون
كن — لاتكن — وهو كائن • أما كونها ناقصة ، فان الفعل الحقيقي يدل
على معنى وزمان • نحو قولك: ضَرَبَ ،فانه يدل على ما مضى من الزمان ، وعلى
معنى الضَّرْب• و(كان) انما تدل على ماضي من الزمان فقط• ويكونُ تدل
على ما أنت فيه • أو على ما يأتي من الزمان ، فهي تدل على زمان فقط •
فلما نقصت دلالتها كانت ناقصة • والأفعال الناقصة تسمى أفعال عبارة ،
أي أفعالاً لفظيةً لاحقيقية • لأن الفعل في الحقيقة ما دل على حدث

والوجه الأصيل الحقيقى ، فكانت مُشتَقّ باسم مدلولة . فلما كانت هذه الاشياء ، لاتدل على حدث لم تكن أفعالا ، الا من جهة اللفظ والتصرف أ هـ (المرجع رقم ١٦ ـ ٨٩/٧)

ونفهم من كلام ابن يعيش هذا أن الفعل الناقص (كان) لايدل على معنى ولا يدل على حدث ، وانما يدل على زمان فقط ، يعنى انه يدل على الوجود مطلقاً أو تكون زائدة للتوكيد .

ويضاف الى هذا شواهد كثيرة من القرآن الكريم ورد فيها "كَانَ" فى صيغة الماضى كقوله تعالى :

" وكان الله عفُوّاً غفوراً " (سورة النساء آية ٤٣ . وقوله عز وجل " (كنتم خير أمةٍ أُخرِجت للناس " (آل عمران آية ١١٠) ويعبّر اللغويون عن " كانَ " بالزائدة وقد تقع زائدة للتوكيد . ومن المفسرين واللغويين من فسروا (كان الزائدة) بمعنى اتصال الزمان من غير انقطاع " وبمعنى " يكون فى المستقبل من الزمان " وتكون بمعنى الحدوث والوقوع (المرجع رقم ٨ (مادة : كون) .

وبالجملة أرى من المحتمل ان تلتقى الصيغة العبرية " הָיָה " والصيغة العربية (كان الزائدة) فكلاهما يتألف من صامتين هما الكاف والنون . اضف الى هذا حركة الامالة الطويلة (الصيرى) فى الصيغة العبرية هى كما اوضحها برجشتراسر تقابل تماما الفتحة الممدودة فى صيغة (كان) العربية . وعلى هذا فالصيغتان تتقابلان من الناحية الشكلية .

ويبقى بعد ذلك الجانب الدلالى : فهل تلتقى الصيغتان ايضا من الناحية الدلالية ؟ ان التقاءهما فى المعانى واضح كما يبدو فيمايلى :

ومن معانى الصيغة العبرية " הָיָה " هى الثبات ـ والبقاء ـ والاستمرارية ـ والاصالة وهذه تتقارب من معانى " كَانَ الزائدة " : التوكيد واتصال الزمان من غير انقطاع ـ ومعنى الحدود والوقوع .

الجزء الخامس

تأصيل ظواهر صوتية عن طريق المقارنة

اولا : ظاهرة الاشمام اللغوى وتأصيله عن طريق المقارنة

ثانيا : بناء الأفعال المعتلة بين المنهج التأصيلى الافتراضى والمنهج التأصيلى الواقعى

E- تأصيل ظواهر صرفية عن طريق المقارنة

مراجع البحث :

١ - التطور النحوى للغة العربية - برجشتراسر (ط القاهرة ١٩٢٩)
٢ - تهذيب اللغة - لأبى منصور الأزهرى (طبالقاهرة)
٣ - شذ العرف فى فن الصرف - للشيخ أحمد الحملاوى (ط مصر ١٣٢٩هـ)
٤ - الصحاح لاسماعيل بن حماد الجوهرى (ط• القاهرة)
٥ - الكتاب - لسيبويه (ط بولاق - القاهرة) ٢٨١/٢ - ٢٨٢
٦ - لسان العرب - لابن منظور محمد بن المكرم (ط بيروت) •
٧ - المنهج الصوتى للبنية العربية (د • /عبدالصبور شاهين ، القاهرة ١٩٧٧) •

8 - Grammaire Éthiopienne, par Marius Chaine- (Beyrouth, Inprimerie Catholique 1938).

أولاً : ظاهرة الاشمام اللغوى وتأصيله عن طريق المقارنة " قال الأزهرى فى تهذيب اللغة : والاشمام أن يُشمَّ الساكن حرفاً كقولك فى الضمة : هذا العَمَل وتسكُت ـ فَتجد فى فيك اشماماً للام لم يبلغ أن يكون واواً ولا تحريكاً يُعْتَدُّ به . ولكنْ شمةٌ من ضمةٍ خفيفة ـ ويجوز ذلك فى الكسر والفتح أيضا " . (المرجع رقم ٢ ـ ١١ ـ ٢٩١) .

" وقال ابن منظور فى لسان العرب : والاشمام : رَوْمُ الحرف الساكن بحركة خَفيَّة لايُعْتَدُّ بها ولاتَكْسِرُ وزناً ـ ألا ترى أن سيبويه حين أنشد : " متى أنامُ لا يؤرقنى الكَرِى " مجزومَ القاف . قال بعض ذلك : وسمعتُ بعض العرب يُشِمُّها الرفع ، كأنه قال : " متى أنام غيرَ مؤرَّقٍ " (المرجع رقم ٦ (مادة ش م م) .

" ويقول الجوهرى صاحب الصحاح : واشمامُ الحرف أن يُشِمَّهُ الضمة أو الكسرة . وهو أقلّ من رَوْم الحركة ، لأنه لا يُسمع ، وانما يُتَبيَّنُ بحركة الشفه . قال : ولايُعْتَدُّ بها حركة لضَعْفها . والحرف الذى فيه الاشمامُ ساكنٌ أو كالساكن مثل قول الشاعر :

متى أنام لا يؤرّقنى الكَرى ليلاً ولاأسْمعُ أجراسَ المطى

قال سيبويه : العرب تُشِمُّ القاف شيئاً من الضمّه . ولو اعتددْتَ بحركة الاشمام لانْكَسَرَ البيت ، وصار تقطيع : رِقُنى الكَرِى : متفاعلن ، ولا يكون ذلك الاّ فى الكامل ـ وهذا البيت من الرّجَز " (المرجع رقم ٤ (مادة ش م م)

ومن المفيد أن نضيف الى ما أوردناه من أقوال أصحاب المعاجم فى شرح الاشمام فى العربية الفصحى ـ تعريفا مبسطا بطريقة حديثة تناولت وصفاً واضحاً لحالتى الواو والياء من الناحية الصوتية (المرجع رقم ٧ ص ٣٠ ، ٣٢) .

قال مؤلف البحث د . عبد الصبور شاهين : " الحركات نوعان : أحدهما حركات

قصار . والأخرى حركات طوال : ويبقى من أصوات الهجاء التى عرفتها العربية صوتان هما : الواو والياء - أو حرفا العلة كما يقال : وهما من الناحية الصوتية نتيجة تتابع الحركات المختلفة : طويلة أو قصيرة .

فاذا تتابعت حركتا الفتحة والكسرة هكذا :

نتج صوت الياء $\underbrace{a + i}_{Y}$

واذا تتابعت حركتا الفتحة والضمة هكذا :

نتج صوت الواو $\underbrace{a + u}_{W}$

أى أن الانزلاق بين الحركتين المختلفتين هو فى الحقيقة ما يسمى بالياء أو الواو .

واذا لم يحدث هذا الانزلاق ، نتيجة الفصل بين الحركتين بسكتة مثلا - لم تنتج الواو أو الياء .

وكذلك اذا تعاقبت حركتان متماثلتان ، فان نتيجة تعاقبهما لاتكون انزلاقا بل مجرد طول ، لايزيد فى أية حال عن فتحة طويلة ، أو كسرة طويلة ، أو ضمة طويلة ... وهنا ينبغى أن نفرق بين حالتين تقع فيهما كل من الواو والياء :

__الأولى__ : أن يكون الانزلاق نهاية مقطع مقفل مثل : بيتُ bay/tu وقوم qaw/mum

__والثانية__ : أن يكون بداية المقطع مثل : واعد waa/ ʿid وياسر yaa/sir

فالحالة الأولى : تؤكد الخاصة الحركية للصوتين : وهى ما يسمى بالمقطع الهابط . والحالة الثانية : تبرز الخاصة الصامتية لهما ، وهى ما يسمى بالمقطع الصاعد .

وخلاصة القول أن ما يمكن أن يوصف بالاعتلال فى أصوات العربية اثنان هما : الواو والياء ، الانتقاليتان . أما الألف فليست حرف علة ، بل هى فتحة طويلة . كما أن الياء المدّية كسرة طويلة . والواو المدّية ضمة طويلة . وقد جاء التباسهما بالواو والياء المتحلتين نتيجة التماثل فى الرمز الكتابى "أ هـ" .

ثانيا : ملاحظات حول الواو والياء الانزلاقيين فى المركّب الصوتى Diphtongue

أ - نفهم مما سبق أن المركّب الصوتى المكوّن بين مخرج كل من الضمة والفتحة (a + u) يتولد عنه صوت الواو . كما فى تُوَّام اذ تصبح تُوام بسقوط الهمزة . وترتب على سقوط الهمزة : أن التقت الحركتان فنشأ صوت الواو ، وليس عن طريق الابدال كما يرى القدماء (المرجع رقم ٧ ص ٣٠ - ٣١)

ب - وأوضح سيبويه أن العرب يُشِمّ القاف شيئا من الضمة ، وقال : وسمعت بعض العرب يُشمّها الرفع . وأنشد قول الراجز :

متى أنامُ لا يؤرّقنى الكَرى
ليلا ولا أسمعُ أجراسَ المطى

" والاشمام - كما عرّفه أحد الصرفيين المُحْدَثين - هو ضم الشفتين ، والاشارة بهما الى الحركة ، بدون صوت ، ويختصّ بالمضموم . ولا يدركه الاّ البصير " (المرجع رقم ٣ ص ١٤٢) وان تعريف الصرفيين لهذه الظاهرة أعنى الاشمام - على هذا النحو ، يشبه أن يكون ايماءة خرساء ، أو اخفاء لصوت ما ناشئ من ضم الشفتين .

جـ - " وفى رأيى أن ما قاله سيبويه يدل على أن اشمامَ القافِ ضمةً وسماعه الرفع هو دليل على أن هذه الظاهرة يختلف العرب فى أدائها ، فمنهم من يُشِمّها الرفع (فيُسْمَع) . ومنهم من يخفى الصوت المضموم فلا يدركه الا البصير .

ثم لماذا نبّه سيبويه على القاف واشمامها الضمّة ؟ ألأنه صادف القاف وهى فى موضع الشاهد من قول الراجز ؟ أم أنه لاحظ فى القاف سمة خاصة دعت العرب الى اشمام القاف ضمّة ؟ وما الغرض من ذلك ؟ يبدو أنها محاولة من اللغة للتقدم بالأصوات الحنكية الى الأمام كالقاف وأمثالها من الأصوات الأمامية ، كالكاف والخاء والجيم .

ان اللغات الساميّة أسرة واحدة ، ولكنها تنقسم الى مجموعتين :

الأولى : شمالية كالأكادية (الأشورية والبابلية) وكالفروع الكنعانية مثل العبرية والآرامية والفينيقيه .

والمجموعة الجنوبية وهى اللغات الساميّة التى تضم اللغة العربية ، ولغة نقوش بلاد العرب الجنوبية ، واللغات الساميّة الموجودة فى بلاد الحبشة .

د — ويبدو أن اللغة الحبشية الجنوبية القديمة (الجعز) أقرب الى مستودع هذه الظاهرة حيث تنوع الحركات المركّبة أى المزدوجة وبخاصة فى الحروف الحنكية وهى القاف — والكاف — والخاء والجيم . وهى أربعة حروف ترسم لكل حرف منها خمس حركات مزدوجات . فمجموعها عشرون حركة مزدوجة ، ولها جدول يضم الحروف الحنكية وحركاتها المزدوجة (المرجع رقم ٨ صـ٣)

ومن الواضح بالمقارنة بين عناصر هذه الظاهرة فى اللغة الحبشية السامية القديمة ، كما بدت من هذا الجدول ، وبين بقايا هذه الظاهرة فى العربية الفصحى حيث ضاعت معظم هذه العناصر ولم يبق منها الا اشمام القاف بالضمة فى العربية ، والا مخلفات باهته بقيت من تأصيل قديم ، وأحقاب عريقة فى القدم .

الحروف الحنكية وحركاتها المزدوجة

الحروف	حركة الواو مع فتحه قصيرة		حركة الواو مع كسرة طويلة		حركة الواو مع فتحة طويلة		حركة الواو مع امالة طويلة نحو الكسر		حركة الواو مع كسرة قصيرة ممالة	
ق	ቈ	قْوَ	ቊ	قْوِي	ቋ	قْوَا	ቌ	قْويه	ቍ	قْو
خ	ኈ	خْوَ	ኊ	خْوِي	ኋ	خْوَا	ኌ	خْويه	ኍ	خْو
ك	ኰ	كْوَ	ኲ	كْوِي	ኳ	كْوَا	ኴ	كْويه	ኵ	كْو
ج	ጐ	جْوَ	ጒ	جْوِي	ጓ	جوَا	ጔ	جْويه	ጕ	جْو

٣- مراجع البحث

١ - الخصائص لابن جني
٢ - لسان العرب لابن منظور
٣ - المنصف: شرح ابن جني لكتاب أبي عثمان المازني : التصريف
4- Ethiopic Grammar with Christomathy and Glossary
By Samuel A.B mercer (Oxford 1920)

٤ بناء الأفعال المعتلة بين المنهج التأصيلي الافتراضي والمنهج التأصيلي الواقعي .

أ ـ أخذ قدماء الصرفيين أصل بناء الافعال المعتلّة العين قياسا على بناء الأفعال الصحيحة فقرروا أن القول بأصل باع (بَيَع) ، وأصل قال (قَوَلَ) ، وأصل رمى (رَمَيَ) ، وأصل تلا (تَلَوَ) .. الخ .
وكان هذا عند الصرفيين مجرد افتراض لا تؤكده الشواهد اللغوية من واقع العربية الفصحى . وظل افتراضهم هذا ذهنياً . وعبّر عن ذلك أبو عثمان المازني في كتابه " التصريف " اذ يقول : " أنه ينبغي أن نعلم أنه ليس معنى قولنا أنه كان الأصل في (قام) و (باع) قَوَم وبَيَع . وفي أخاف وأقام : (أخوف) ، (وأقوم) . وفي استعان واستقام (استعون واستقوم) ، اننا نريد به أنهم قد كانوا نطقوا مدة من الزمان بقَوَمَ وبَيَعَ ونحوهما مما هو مغيّر ، ثم انهم أضربوا عن ذلك فيما بعد . وانما نريد بذلك أن هذا لو نطق به على مايوجبه القياس ، بالحمل على أمثاله لقيل : (قَوَمَ ـ بَيَعَ ـ استَقْوَم ـ استَبْيَع) (المرجع رقم ٣ ـ ١/ ١٩٠) .

ب ـ ويتلقّى ابن جني ـ في أواخر القرن الرابع الهجري ـ بعقله المتفتّح شاهدا يتضمن لهجة عربية ، والشاهد منسوب الى العجاج ابن رؤبة وهو قول الراجز : (حتّى اذا ما أمْسَجَتْ وأمْسَجا) شرحه ابن جني في بعض مصنفاته ، ونقله ابن منظور في لسان العرب (المرجع رقم ١ مادة (م س ا) وفيما يلي نص هذا الشاهد :
" وقول الناس : كيف أمسيتَ أي كيف أنت في وقت المساء ... وقول الراجز : (حتى اذا ما أمْسَجَتْ وأمْسَجا) ـ انما أراد حتى أمست وأمسى فأبدل مكان الياء حرفاً جَلْداً شبيها بها لتصحّ له القافية والوزن " .

قال ابن جنّي : " وهذا أحسنُ ما يدلّ على أن ما يدّعو من أن أصل رميت وغزت: رَمَيْتُ وغَزَوْتُ . واطلَيْتُ اطلَيْتُ ، واستقصَيْتُ استقصَيْتُ . وامسَيْتُ أمسَيْتُ . الا ترى أنه لما أبدل التاء من أمسَيْتُ جيماً ، والجيم حرف صحيح يحتمل الحركات ولا يُلْحِقُه الانقلاب الذي يلحق الياء والواو صحّحها كما يجب في الجيم " .

" ولذلك قال: أمسَجا ـ فدلّ على أن أصل غزا غَزَوَ "

وليس غريباً على ابن جنّي ، وقد رأى هذا الرأي هنا في الأفعال التي ثالثها واو أو ياء . أن يقيس هذا الرأي أيضا على الأفعال التي ثانيها واو أو ياء " .

ونخلص من هذا الى أن ملاحظة ابن جنّي أعطت الصرفيين شاهداً من اللهجات العربية التي تسربت الى الفصحى ، وهذا الشاهد يحمل قرينة واضحة ، وإن تكن غير مباشرة على أن ابن جنّي بعقله المتفتح يؤثر المنهج التأصيلي الواقعي .

- أما الشواهد المباشرة التي يمكن أن نجدها بوفرة في اللغة الحبشية السامية القديمة ، حيث وجدنا مستودعاً تأصيلياً لما سمّاها الصرفيون " اشمام القاف ضمّة " ، فكذلك سنجد اللغة الحبشية السامية القديمة ، مستودعاً تأصيلياً من الشواهد التي تؤكد أن بناء الأفعال المعتلة كان حريصا كل الحرص على الياءات أو الواوات في الأفعال المجردة والمزيدة سواء كانت الياء أو الواو في أواسط الأفعال أو في أواخرها . وفيما يلي جدول ببعض شواهد من الفعل الماضي المعتل:

قراءة اللفظ الحبشي بالخط العربي	المقابل في العربية	نوع المعتل ومكانه	الفعل الماضي المعتل في الحبشية – يكتب من اليسار
رَمَيَ	رمى	معتلّ الاخر بالياء	ረመየ
سَنَيَ	حسن	معتلّ الاخر بالياء	ሠነየ
سَمَّيَ	سمّى	معتلّ الاخر بالياء	ሰመየ
بَكَيَ	بكى	معتلّ الاخر بالياء	በከየ
مَهَوَ	ذاب أو سال	معتلّ الاخر بالواو	መሀወ
تَلَوَ	تلا	معتلّ الاخر بالواو	ተለወ
مَطَوَ	أعطى	معتلّ الاخر بالواو	መጠወ
حَيَلَ	حمل	معتلّ الوسط	ሐየለ
حَيَوَ	حيّ أو عاش	معتل الوسط والآخر	ሐየወ

ـــ ٣٣١ ـــ

فهرس موضوعات الكتاب

الجزء الاول (A)

تأصيل بعض فنون الشعر العربي

نشأة الوزن المقفى عند العرب الاوائل ٢ ــ ٣٥

الجزء الثانى (B)

تأصيل الحدث التاريخي فى العصور الاسلامية

أولا : الفاطميون والقرامطة ٣٦ــ ٤٦

ثانيا : قبائل مورو وكافور الأخشيدي ٤٧ــ ٥٠

ثالثا : علماء العربية فى الاندلس هل عرفوا مبادىء المنهج اللغوى المقارن قبل أن يعرفه الأوربيون ؟ ٥١ــ ٦١

الجزء الثالث (C)

تأصيل اقدم مراكز العبادة عند الساميين منذ عصور ما قبل الميلاد ٦٢ــ ٧١

الجزء الرابع (D)

تأصيل (الكاف) الاداة النحوية ووظائفها فى اللغات السامية ٠ ٧٣ــ ٨٤

الجزء الخامس (E)

تأصيل ظواهر صرفية عن طريق المقارنة

اولا : ظاهرة الاشمام اللغوى وتأصيله عن طريق المقارنة ٠ ٨٧ــ ٩١

ثانيا : بناء الافعال المعتله بين المنهج التأصيلى الافتراضى ٠ والمنهج التأصيلى الواقعى ٠ ٩٢ــ ٩٥